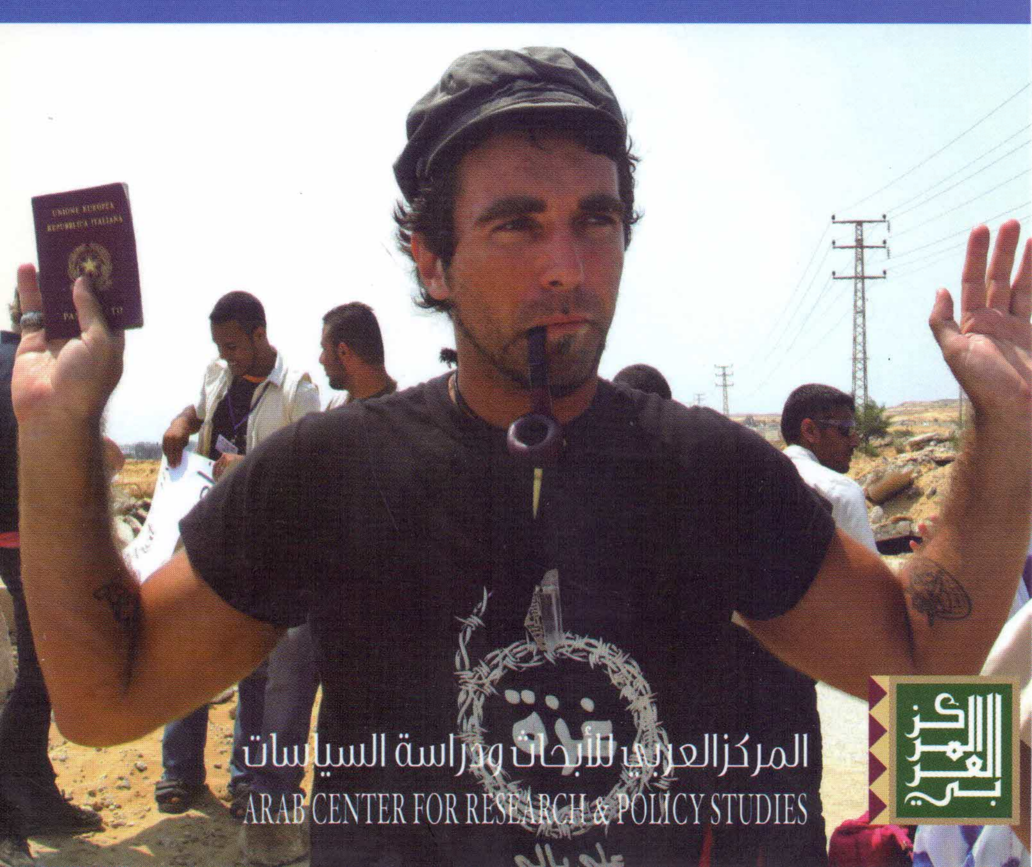
فيتوريو أريغوني

غزة،
حافظوا على إنسانيتكم



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

المؤلف

فيتوريو أريغوني مراسل صحافي وكاتب وناشط إيطالي، عمل مع حركة التضامن العالمية الداعمة للشعب الفلسطيني في قطاع غزة ابتداء من عام ٢٠٠٨ وحتى استشهاده هناك في نيسان/أبريل ٢٠١١. كان أريغوني يمتلك مدونة **Guerrilla Radio** (إذاعة حرب العصابات). نشر هذا الكتاب، الذي نقدم هنا ترجمته العربية، باللغة الإيطالية في الأصل، ثم ما لبث أن تُرجم إلى الانكليزية والاسبانية والألمانية ووزع في مختلف أنحاء العالم، وهو يعرض فيه تجربته في غزة أثناء العدوان الإسرائيلي على القطاع عام ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩. اغتيل أريغوني على أيدي مشبوهين من أعضاء مجموعة سلفية متشددة في غزة. ولقيت جريمة اغتياله إدانة واسعة على مستوى العالم، كما أدان هذه الجريمة عدد كبير من الفصائل الفلسطينية.

يُعدّ أريغوني واحدًا من الذين أعادوا إحياء حركة التضامن العالمية (ISM) (وهي مجموعة متضامنة مع الشعب الفلسطيني وتعمل في الأراضي المحتلة). في آب/أغسطس ٢٠٠٨، شارك أريغوني في الحملة التي تهدف إلى كسر الحصار على قطاع غزة، وبعد تولي حماس السلطة في القطاع في حزيران/يونيو ٢٠٠٧ كان أريغوني يستقل أول سفينة وصلت إلى ميناء غزة، واصفاً لحظة وصوله إلى غزة يومها بأنها واحدة من أسعد لحظات حياته.

السعر: 8 $

توزيع:



ISBN 978-614-01-0398-6



غـزة،

حافظوا على إنسانيتكم

غـزة،
حافظوا على إنسانيتكم

فيتوريو أريغوني

تقديم: إيلان بابيه

ترجمة: مالك ونوس



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

الفهرسة أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
أريغوني، فيتوريو
غزة حافظوا على إنسانيتكم / فيتوريو أريغوني.
١٦٠ ص. ١٤,٥ × ٢١,٥ سم.
يشتمل على فهرس عام.
ISBN 978-614-01-0398-6
١. حرب غزة، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ - روايات شخصية إيطالية.
٢. حرب غزة، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ - التغطية الصحافية - إيطاليا.
٣. قطاع غزة - تاريخ - القرن الحادي والعشرون. أ. العنوان
956.94054

العنوان بالإنكليزية
GAZA: Stay Human
by Vittorio Arrigoni

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES
شارع رقم: ٨٢٦ - منطقة ٦٦
المنطقة الدبلوماسية - الدفنة، ص. ب.: ١٠٢٧٧ - الدوحة - قطر
هاتف: ٤٤١٩٩٧٠٩ - ٠٠٩٧٤، فاكس: ٤٤٨٣١٦٥١ - ٠٠٩٧٤
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢

توزيع



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
هاتف: ٧٨٦٢٣٣ - ٧٨٥١٠٧ - ٧٨٥١٠٨ (١ - ٠٠٩٦١)
الموقع على شبكة الانترنت: http://www.asp.com.lb

إهـــداء

إلى فيتوريو

كي تبقى ذكراه تحوم في ليالي قاتليه

إلى شهداء النكبة الفلسطينية المزمنة

وإلى ناصر طبعاً

دانييلا فيليبين

مترجمة النص إلى الانكليزية

المحتويات

تقديم

ميادين القتل في غزّة (٢٠٠٩)

بدأ الجيش الإسرائيلي في سنة ٢٠٠٤ بناء نموذجٍ لمدينةٍ عربيةٍ في صحراء النقب. كان حجمها في حجم مدينةٍ حقيقية، أطلق على شوارعها ومساجدها وأبنيتها وسياراتها أسماءً. وصلت تكاليف بناء هذه المدينة إلى ٤٥ مليون دولار أميركي. وبعد عامين، في شتاء سنة ٢٠٠٦، أصبحت هذه المدينة الشبح نموذجاً لمدينة غزَّة. بعد التدرب على القتال في هذه المدينة الزائفة أصبحت القوات الإسرائيلية مستعدةً لمقاتلة حركة حماس في الجنوب بحرب أفضل من حربها التي خاضتها في الشمال؛ تلك الحرب التي قاتلها فيها حزب الله وأجبرها على الانسحاب.

عندما زار رئيس الأركان العامة الإسرائيلية دان حالوتس هذا الموقع بعد حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦ في لبنان، أبلغ إلى وسائل الإعلام أن الجنود كانوا يستعدون لسيناريو سيتم تجسيده في أحياء غزَّة كثيفة السكان. وبعد أسبوعٍ من القصف على غزَّة، حضر إيهود باراك التدريبات على الحرب البرية. وقد صوّره مراسلو التلفزة الأجنبية بينما كان يشاهد القوات البرية وهي تهزم المدينة الوهمية عبر اقتحام المنازل الخالية، وتقتل بلا شك، «الإرهابيين» المختبئين في داخلها.

خلال عام ٢٠٠٥ أصبحت غزَّة هدفاً عسكرياً من وجهة النظر الرسمية الإسرائيلية، وكأنها قاعدة ضخمة للعدوّ وليست مكاناً يعيش فيه

سكانٍ مدنيون. يجب عدم التعامل مع غزَّة بشكل مختلف عن التعامل مع برشلونة أو برايتون أو ليون أو أي مدينة أخرى في العالم، لكن بالنسبة إلى الإسرائيليين أصبحت غزَّة مثل الدمية، يتم استخدامها كدريئة يتدرب عليها الجنود الإسرائيليون متسلحين بأكثر المعدات العسكرية تطورا.

بدأ ذلك كله بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من غزَّة في صيف عام ٢٠٠٥. أما المستوطنون فقد تم سحبهم من القطاع لتمكين الجيش الإسرائيلي من التحكم به وتنفيذ إجراءات انتقامية وحشية من دون القلق على مصير المستوطنين اليهود الموجودين فيه. وقد عقدت الآمال على أن هذا الفعل، الذي يشك في النيات التي تقف وراءه، سيبدو على أنه إشارة سلامٍ، وهو الاعتقاد الذي بقي سارياً بالفعل لفترةٍ من الزمن.

لكن الأمور لم تسر كما خطط لها الإسرائيليون. فقد أعقب عملية الإخلاء سيطرة حماس: بدايةً عبر انتخاباتٍ ديمقراطيةٍ، وبعدها عبر انقلابٍ استباقيٍّ لتفادي انقلاب فتح المدعوم أميركياً. كان ردُّ إسرائيل الفوري على ذلك فرض حصارٍ اقتصاديٍّ على القطاع، ما دفع حماس إلى الانتقام عبر إطلاق صواريخ على مستوطنة سديروت، مقدمةً لإسرائيل الذريعة لاستخدام قواتها الجوية ومدفعيتها ومروحياتها. ادَّعت إسرائيل أنها تقصف مناطق إطلاق الصواريخ فقط، لكن هذا يعني أي مكانٍ وكل مكان في غزَّة.

كان القصف يأتي من البرِّ من الدبابات، ومن الجوِّ والبحر، وأصبحت الهجمات الوحشية مشهداً متكرراً. ولكن حين هزمت إسرائيل على جبهة أخرى، أي جبهة جنوب لبنان في صيف ٢٠٠٦، عمل الجيش على تصعيد أعماله الانتقامية ضد مليون ونصف المليون

من المدنيين الذين يعيشون على أكثف ٤٠ كيلومتراً مربعاً على سطح الكرة الأرضية. لقد أصبحت السياسة الإسرائيلية شيئاً فشيئاً سياسة إبادة جماعية، وكانت ردة فعل حماس مستميتة. أما سبب تصعيد الأعمال العسكرية فهو الذل الذي لحق بالجيش الإسرائيلي في لبنان على يد حزب الله. وقد كان هذا الجيش في حاجة لإظهار تفوّقه وقدرة الردع لديه التي اعتبرها الحصن الواقي لبقاء الدولة اليهودية في عالمٍ عدائيٍّ. إن الطبيعة الإسلامية لكل من حماس وحزب الله وتحالفهما المزعوم والملفّق بشكل كلي مع القاعدة دفع الجيش لتخيّل تزعّم إسرائيل لحرب عالمية ضد الجهاد في غزَّة. وحين كان جورج بوش في الحكم كان قتل النساء والأطفال في غزَّة مقبولاً لدى الإدارة الأمريكية التي تعتبره جزءاً من الحرب المقدسة ضد الإسلام.

بدأت سياسة الإبادة الجماعية بشكل جدّي منذ الشهر الأول من عام ٢٠٠٧، ووصلت ذروة تصعيدها في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩. فخلال سنة ٢٠٠٧ وحدها كان عدد الضحايا كبيراً حيث قتل ٣٠٠ شخصٍ في غزَّة بينهم عشرات الأطفال.

لكن، وحتى خلال فترة حكم بوش، وبالتحديد في أواسطها، كانت أسطورة محاربة الجهاد العالمي في غزَّة تُفقِد الجيش الإسرائيلي صدقيته. لذلك كان ثمة أسطورة جديدة تم اقتراحها عام ٢٠٠٧ وهي إن غزَّة كانت قاعدةً إرهابيةً مصمّمةً على تدمير إسرائيل. وقد كان سبيل الفلسطينيين الوحيد كي يعتبروا معادين للإرهاب مثلاً هو أن يوافقوا على العيش في قطاع مطوّق بالأسلاك الشائكة والجدران العازلة، ويتوقف حصوله على حاجياته والحركة منه وإليه على خيار الغزويين السياسي. فإن هم استمروا بدعمهم حماس سوف يتم خنقهم وتجويعهم

حتى يغيّروا ميولهم العقائدية. أما إذا سلّموا بنوع التوجه السياسي الذي تريدهم إسرائيل أن يتبنوه، فإنهم سوف يعانون أيضاً المصير نفسه الذي يواجهه أهلهم في الضفة الغربية، ألا وهو العيش من دون حقوق مدنية أو إنسانية. فإما أن يكونوا نزلاء السجن المفتوح في الضفة الغربية أو نزلاء ذلك السجن ذي الشروط الأمنية الأكثر صرامة في قطاع غزَّة. أما إذا قاوموا، فمن المحتمل أنهم سيسجنون من دون محاكمة، أو يُقتلون. تلك هي رسالة إسرائيل.

أُعطِيَ أهالي غزَّة سنة واحدة، أي سنة ٢٠٠٨، كي يحددوا خيارهم. لقد اختاروا المقاومة، فكانت النتيجة مذبحة كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩. أما نموذج المدينة الذي تدرّب عليه الجنود فقد أصبحت غزَّة بديلاً منه، حيث هوجمت بوحشية بما يمكن أن يدّخره جيش تقليدي لمواجهة لواء مدرعات وسلاح مشاة في ساحة معركة مفتوحة وليس في مناطق سكن ريفيةٍ أو حضريةٍ. لقد أصبحت غزَّة ساحات للقتل تُستخدم فيها أحدث أشكال الأسلحة تطوراً والتي يَمنع المجتمع الدولي استخدامها بشدة ويعتبر استخدامها جريمة حرب.

طالما كانت المقاومة في فلسطين تتركز في القرى والبلدات. وإلا فمن أين يمكن أن تأتي؟ لذلك كانت القرى والبلدات والمدن الفلسطينية، الوهمية منها والحقيقية، توصف في الخطط والأوامر العسكرية منذ أن ثار العرب عام ١٩٣٦، على أنها «قواعد معادية». وأي عمل تأديبي أو انتقامي فلسطيني يتم استغلاله كذريعة لاستهداف المدنيين الذين لا يوجد إلا حفنة قليلة منهم ضالعةً في أعمال المقاومة ضد إسرائيل. في عام ١٩٤٨ اعتبرت حيفا «قاعدة معادية» كما اعتبرت جنين كذلك عام ٢٠٠٢. أما الآن فتعتبر بيت حانون ورفح وغزَّة جميعها

قواعد معادية. عندما تكون لديك القوة النارية وتكون مجرداً من الموانع الخلقية التي تمنعك من القيام بمذابح ضد المدنيين، فإنك ستحصل على الوضع الذي نشهده الآن في غزَّة.

ولكن تجريد الفلسطينيين من صفة الإنسانية لا يتم في الخطاب العسكري فحسب، فثمة إجراء مشابه يتبعه المجتمع اليهودي المدني الإسرائيلي، وذلك يفسر دعم المدنيين الهائل للمجزرة التي تحصل في غزَّة. لقد جرد اليهود الإسرائيليون، السياسيون منهم والجنود والمواطنون العاديون، الفلسطينيين من صفة الإنسانية وبذلك جاء قتلهم نتيجةً طبيعية، مثلما حدث عندما تم نفيهم عام ١٩٤٨، أو سجنهم في الأراضي المحتلة. تدل ردة الفعل الغربية الحالية على أن قادة الغرب السياسيين فشلوا في رؤية الرابط المباشر بين تجريد الصهيونية للفلسطينيين من إنسانيتهم وبين السياسات البربرية الإسرائيلية في غزَّة. هنالك خطرٌ محدقٌ يتجلى بالخوف من أن تكون عاقبة عملية الرصاص المصبوب هي تحويل قطاع غزَّة إلى مدينة أشباح مشابهة لذلك النموذج الذي بُنِيَ في صحراء النقب.

في الحقيقة، ولكي تتمكن من تقدير أهمية الوثائق الصادمة التي ستقوم بقراءتها في هذا الكتاب عليك أن تدرك حجم اللامبالاة التي سيلقاها لدى الأغلبية الساحقة من اليهود الإسرائيليين، هذا إذا رغبوا في قراءة بهذا الكتاب المهم أو الانهماك به لدرجة الحرج. إن إحدى أعظم مساهمات هذا الكتاب هي أنه، أولاً وقبل كل شيء، يعتبر رواية شاهد عيان لرجل يمثّل كل رجل، ولشخص إنساني حقيقي. رجلٌ يعلم أن ما جاء في كتابه يمكن أن يفتح نافذةً صغيرةً للعقول المغلقة التي تدعم إسرائيل من دون قيد أو شرط.

بعد فترةٍ طويلةٍ من الغياب عدت إلى إسرائيل، وقد تزامنت عودتي مع بدء هجوم الإبادة الجماعية الإسرائيلي ضد غزَّة في كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩. وكانت إسرائيل قد أعلنت للملأ عن هذا الهجوم عبر وسائل إعلامها وبمساعدة أكاديمييّها، وبصوت جماعي واحد حتى أعلى من ذلك الذي سمع خلال الهجوم الإجرامي ضد لبنان في صيف ٢٠٠٦. كانت إسرائيل مأخوذةً مرةً أخرى بـ«غضب الصالحين» المبرر أخلاقياً والذي تُرْجِمَ إلى سياساتٍ تدميريةٍ في قطاع غزَّة. هذا التبرير الذاتي الراعب للوحشية وللشعور بالحصانة ليس مثيراً للغضب فحسب، بل هو مسألة يجدر التوقف عندها إذا أراد أحدنا فهم اللامبالاة الدولية حيال المجزرة المستعرة نارها في غزَّة.

استند ذلك التبرير، أولاً وقبل كل شيءٍ، على الأكاذيب المطلقة التي أذيعت مع الوصول إلى ذروة التذكير بالأحداث التي جرت في غابر الزمن في فترة ثلاثينيات أوروبا السوداء. خلال مذبحة غزَّة كانت تخرج علينا نشرات الأخبار في كل نصف ساعة عبر المذياع وعبر شاشة التلفزيون لتصف الضحايا في غزَّة بأنهم إرهابيون، وبأن عمليات القتل الجماعي الإسرائيلي ما هي إلاّ دفاع عن النفس. قدّمت إسرائيل نفسها لمواطنيها على أنها ضحيةٌ تدافع عن نفسها ضد شرٌّ مستطيرٍ. لقد تم تجنيد العالم الأكاديمي لتوضيح كم كان الكفاح الفلسطيني شيطانياً ومتوحشاً وأن حركة حماس كانت تقود هذا الكفاح. كان أولئك الأكاديميون هم أنفسهم الذين حوّلوا القائد الراحل ياسر عرفات إلى شيطانٍ خلال مرحلةٍ سابقةٍ، ونزعوا الشرعية عن منظمته (حركة فتح) خلال الانتفاضة الفلسطينية الثانية.

لكن الأكاذيب وتشويه الصور الحقيقية لم يكن الجزء الأسوأ

من تلك التبريرات، بل كان الهجوم المباشر على آخر أثرٍ من إنسانية الشعب الفلسطيني وكرامته. وكان ذلك أكثر ما أثار الغضب. لقد أظهر الفلسطينيون في أراضي ١٩٤٨ تضامنهم مع أهلهم في غزَّة، لذلك تم تصنيفهم طابوراً خامساً في الدولة اليهودية. وأصبح حقهم في البقاء في وطنهم أمراً مشكوكاً في استمراره، إذا ما أخذنا رفضهم دعم العدوان الإسرائيلي في الاعتبار. أمّا مَن وافق منهم على الظهور في الإعلام المحلي الإسرائيلي، وذلك خطأ برأيي، فلم يظهر بوصفه متحدثاً في لقاء صحافي، بل ظهر وكأنه نزيل أحد سجون «الشين بيت» حيث يتم استجوابه. وقد سبق ظهورهم وتلاه إشاراتٌ وملاحظاتٌ عنصريةٌ، وتم اللقاء معهم في سياق اتهامهم بأنهم أناس لاعقلانيين ومتعصبين. ومع ذلك، لم يكن هذا التصرف هو التصرف الأكثر وضاعةً. فقد كان يوجد بعض الأطفال الفلسطينيين من خارج مناطق ١٩٤٨ يعالجون من مرض السرطان في المستشفيات الإسرائيلية. الله وحده يعلم مدى ضخامة التكاليف التي يدفعها أهاليهم ليتم قبولهم هنالك. وكانت الإذاعة الإسرائيلية تذهب إلى هناك يومياً كي تطلب من الأهالي الفقراء أن يخبروا المستمعين الإسرائيليين كم كانت إسرائيل على حق في هجومها، وكم كانت حماس على باطل لممارستها الدفاع عن نفسها.

لم يكن للنفاق الذي يصدر عن غضب الصالحين حدودٌ، وكانت أحاديث جنرالات الجيش والسياسيين قد تأرجحت بين كيل المديح للجيش على الإنسانية التي يظهرها من خلال عملياته العسكرية (الجراحية) من جهة، والحاجة لتدمير غزَّة لمرة واحدة وأخيرة من جهة ثانية. وطبعاً كان ذلك كله يتم بطريقة إنسانية.

إنّ «غضب الصالحين» ميزة دائمة في سيطرة إسرائيل وقبلها

الحركة الصهيونية على فلسطين. فكل عمل، أكان احتلالاً أم عملية تطهيرٍ عرقيٍّ أو مذبحةً أو تدميراً، يتمّ تصويره بشكل أدبي على أنه دفاع عن النفس لجأت إليه إسرائيل بعد ترددٍ في حربها ضد أسوأ أنواع البشر. فمن اليسار إلى اليمين ومن الليكود إلى كاديما ومن الأكاديميين إلى الإعلام يستطيع الواحد منا أن يسمع صوت «غضب الصالحين» هذا في الدولة الأكثر انهماكاً من أي دولة أخرى في تدمير السكان الأصليين واقتلاعهم من أرضهم.

إن لمن الضروري العمل على استكشاف الأصل الأيديولوجي لهذا الموقف وأن نصل إلى الاستنتاجات السياسية الضرورية جراء تفشّيه. فغضب الصالحين هذا يحصّن المجتمع والسياسيين الإسرائيليين من أي شجبٍ أو انتقادٍ خارجيٍّ. ولكن الأسوأ من ذلك، أن هذا التحصين غالباً ما يترجم إلى سياساتٍ تدميريةٍ ضد الفلسطينيين الموثّق لهم في هذا الكتاب بشكل يدعو إلى القشعريرة، ولكنه توثيق إنساني مع ذلك.

أما الكاتب، فيتوريو أريغوني، فقد تطوّع مع حركة التضامن الدولية لمساعدة أهالي غزَّة كجزء من مهمتها في الدفاع عن حقوق الإنسان. وقد وجد هناك خلال عملية الرصاص المصبوب وبعدها، لذلك فإن تقاريره اليومية تأتي مباشرة من ميادين القتل في غزَّة، ولهذا السبب فهي تخلو من أي تشويه أو تلاعبٍ إعلاميٍّ.

من خلال روايته لما جرى يمكننا رؤية كيف أصبح أي فلسطينيٍّ في عيون نصف اليهود الإسرائيليين، العصيّين على أي انتقاد داخلي أو ضغط خارجي، هدفاً محتملاً لغضب الصالحين. أما إعطاء القوة النارية للدولة اليهودية فلن يؤدي حتماً إلا إلى تمكينها من الوصول إلى ممارسة القتل الجماعي والمذابح والتطهير العرقي. يدور الكثير

مما ستقرؤونه في هذا الكتاب حول المحاولة البطولية لمتطوعين أمثال فيتوريو أريغوني للوقوف حصناً يحمي أهالي غزَّة من هذا العدوان الشرس. لكن هذه المحاولة لا تسعى إلى البرهنة عن أنها كافية لحماية الشعب الفلسطيني.

إن «غضب الصالحين» عند العديد من الإسرائيليين هو فعل لنكران الذات وتبرير للأعمال التي يقومون بها. وهو يوضّح سبب عدم إمكانية قيادة المجتمع الإسرائيلي اليهودي عن طريق كلمات الحكمة أو الإقناع المنطقي أو الحوار الدبلوماسي. وإن رفض شخصٌ ما تأييد العنف كوسيلة منه لإظهار معارضته له، فهنالك طريق وحيدة نحو تحقيق ذلك: إنه التحدي المباشر لهذا التبرير الأخلاقي باعتباره أيديولوجيا شريرة يراد منها التغطية على الأعمال الوحشية بحق الإنسانية. وهنالك اسم آخر لهذه الأيديولوجية وهو الصهيونية، ويصبح الشجب العالمي للصهيونية وليس لسياسات إسرائيلية محددة هو السبيل الوحيد للوقوف في وجه إعطاء إسرائيل نفسها الحق في ممارسة ما تقوم به. علينا محاولة الشرح، ليس للعالم فحسب، ولكن للإسرائيليين أنفسهم، بأن الصهيونية هي أيديولوجيا تبيح التطهير العرقي والاحتلال والمذابح الجماعية. المطلوب الآن ليس إدانة المذبحة الحالية فحسب، بل إدانة إسباغ الشرعية على الأيديولوجية التي تنتج تلك السياسة والتي تبررها من الناحية الأخلاقية والسياسية أيضاً. دعنا نأمل بأن ذلك الصوت المهمّ الذي يعمّ العالم سيبلّغ الدولة اليهودية أن هذه الأيديولوجية وسلوكها العامّ أصبحا لا يُحتَملان وغير مقبولَين. وطالما أنها ستستمر في ذلك، فإنه سيتم مقاطعتها وستُفرَض عليها عقوبات.

بعد مرور نحو عام على المجزرة، لم تتحقق هذه الآمال للأسف.

حتى إنّ قتل المئات من الفلسطينيين الأبرياء لم يكن كافياً لينتج أي تغيير يذكر في الرأي العام الغربي، علاوة على موقف الحكومات الغربية. ويبدو أنه حتى أكثر الجرائم ترويعاً كالإبادة الجماعية في غزّة قد تم التعامل معها كحدث منفصل غير مرتبط بأي شيء حصل في الماضي، أو مرافق لأي أيديولوجيا أو نظام.

إيلان بابيه

آب/أغسطس ٢٠٠٩

كلمة إلى القارئ

تحذير... وطرق الاستخدام

«حافظوا على إنسانيتكم» هو الشعار الذي أوَقِّع به ما أكتبه لجريدة إل مانيفستو وما أدونه على مدوّنتي. إنه دعوةٌ، أو لا يزال أفضل دعوةٍ، للتسريع في كفّ يد لجنة الأعمال الإجرامية ومن أجل إعادة التأكيد على الأهداف الأساسية للجنس البشري والوقوف إلى جانبها. عندما تلغى الأعلام والحدود وخطوط العرض والفروقات الدينية والعرقية، فإن ما يظهر في مشهد الحياة هو سيناريو التجرد، مما يدفع المرء للحفاظ على أهله وأقربائه على حساب الآخرين. أما عملي فهو دعوة لنا جميعاً كي نتذكر انتماءنا إلى جماعة فريدة من الكائنات الحية، ألا وهي العائلة الإنسانية.

غزَّة: حافظوا على إنسانيتكم هو أيضاً الآن كتاب. تجدون فيه قصة المذبحة التي استمرت ثلاثة أسابيع والتي كتبتها حسب مقدرتي، وفي معظم الأحيان في ظروف من كثير من عدم الاستقرار. تلك القصة التي كنت أخربشها في أغلب الأحيان، والجميع موجودون حولي، في دفتر ملاحظاتٍ بالٍ بينما أكون جاثماً في سيارة إسعاف تطلق صفارتها في أسفل الشارع، أو أنقرها بشكل مسعور على لوحة مفاتيح أي جهاز حاسوبٍ متوفرٍ لدي، وغالباً داخل أحد الأبنية المترنحة كبندولٍ مجنون من شدة الانفجارات الشاملة التي تقع حولنا. من الواجب عليَّ تحذيركم بأن الغوص في هذا الكتاب قد يكون محفوفاً بالمخاطر. هذه الأوراق مؤذيةٌ وملطّخةٌ بالدماء كما إنها مشبعةٌ بالفوسفور الأبيض، وهي حادةٌ كحدة

شظايا قنبلةٍ. أما إذا قُرئت في هدوء غرفة نومٍ، فإن جدرانكم ستهتزّ بفعل صرخاتنا التي سبّبها الرعب. إنني أشعر بالقلق على شغاف قلوبكم التي أعترف أنها لم تصبح حتى الآن عازلةً لأصوات الألم.

الرجاء الاحتفاظ بهذا الكتاب في مكانٍ آمنٍ في متناول الفتيان، فبذلك ربما يطّلعون بسرعةٍ على عالم ليس شديد البعد عنهم، حيث اللامبالاة والتمييز العنصري تمزّق نظراءهم إلى قطع صغيرة وكأنهم مجرد دمىً بالية. وبهذه الطريقة ربما يكون ذلك لقاحاً لهم، منذ نعومة أظفارهم، ضد التمييز العنصري وضد وباء العنف تجاه أي شخص مختلف عنا كائناً من كان، أو ضد الحياد عندما يواجَه بالظلم. يهدف كتاب غزّة: حافظوا على إنسانيتكم إلى أن يسمو إلى ما هو أعلى مما ستأتي به كتب أخرى حول فلسطين من داخلها أو خارجها، وذلك بفضل النار الإبداعية التي أنجبته: ما يعوّل على هذا الكتاب هو إشراك وعي القارئ وتنويره والارتقاء به إلى ما تكشّف من بربرية السفاحين ووحشيتهم خلال ٢٢ يوماً من المجزرة. إن هذا هو إسهامي المتواضع من أجل منع مجازر مماثلة من الوقوع في المستقبل، كذلك منح الموتى بعض العدالة، وحماية ذوي الجراح البليغة في الغد.

الرجاء أن تساعد نفسك للحصول على بطاقة للقيام بجولة في الجحيم الذي حتى الشاعر دانتي أليغيري لم يكن بإمكانه تخيّله عندما استيقظ نافضاً رأسه عن وسادته بفعل الكوابيس. إنني أعلل نفسي بالأمل بأن أكون مرشداً جيداً من خلال هذا الكتاب إلى أنحاء هذا الجحيم كافة، مثل كارون بطل دانتي الذي ينقل الناس بعبّارته إلى الجحيم، وأنّي كنت مخلصاً قدر الإمكان وإنسانياً في سردي.

واقفاً بين أنقاض بنايةٍ مقصوفةٍ حديثاً أو في ردهة مشفىً ما في غزّة:

إنني على يقين بأنه كان في بعض الأحيان من الصعب تمييز القسمات البشرية لما كان مرة وجهاً بشرياً، لقد تم تصغيره إلى ما يشبه العجينة بفعل أسلحة الدمار الشامل المستخدمة والتي حرمتها كل الأعراف والشرائع الدولية. تجاهد تقاريري لتتماشي وأعظم درجات الموضوعية الممكنة. وكما يحدث دائماً، كنت أنا نفسي هدفاً للجيش الإسرائيلي وتلقيت كذلك تهديداتٍ بالقتل من قبل مجموعة من النازيين الجدد المرتبطين ببعض المجموعات الاستيطانية. وإلى كل امرئ ما زالت لديه شكوك، فإن تقاريري والتفاصيل التي سُجِّلَت تحت عاصفة من القنابل قد تم تدعيمها من قبل معظم منظمات حقوق الإنسان الموثوقة سواء كانت حكومية أم غيرها، بالإضافة إلى اعترافات الجنود الإسرائيليين أنفسهم الذين بدأوا مؤخراً يقرّون بالجرائم التي ارتكبوها. مع الأيام سيصبح **غزَّة: حافظوا على إنسانيتكم**؛ بشكل متزايد أقرب إلى الوثيقة التاريخية منه إلى رواية بسيطة من الجحيم.

إذا كانت الحقيقة هي الضحية الأولى لأي حرب، فإنه من أولى أولويات إسرائيل المطلقة أن تغتالها قبل الصراع وخلاله وبعده. أمّا واجبنا كناشطين، أو بشكل أعم كبشر، فهو توثيقها ونشرها من أجل الحرية والعدالة، ومن ثم وضعها على طاولة الرأي العام العالمي، وبعدها التعامل معها كوجبة، كلما كانت صعبة الهضم على متّبعي الحمية كان ذلك أفضل.

من أجل الغد ومن أجل أن تحافظوا على إنسانيتكم.

فيتوريو أريغوني

المرفأ أو أنقاضه

مدينة غزة، ١٥ تموز/يوليو ٢٠٠٩

غيرنيكا في غزّة[1]

٢٧ كانون الأول /ديسمبر ٢٠٠٨

من: فيتوريو أريغوني

شقتي في غزَّة مواجهة للبحر، منظر بانورامي لطالما كان له فعل العجائب على مزاجي، وغالباً ما كان يتم تعكير ذلك المزاج بسبب كل هذا البؤس الذي تسببه الحياة تحت الحصار. كان ذلك قبل هذا الصباح عندما انفتح كل الجحيم خارج نافذتي. استيقظنا على صوت سقوط القنابل التي نزل العديد منها على بعد بضعة مئات من الأمتار من منزلي. وقد سقط بعض من أصدقائي صريعاً بفعل تلك القنابل.

وصل عدد الضحايا حتى الآن إلى ٢١٠ قتلى، لكن الرقم يتجه نحو الازدياد بشكل دراماتيكي. إنها عملية سفك دماء غير مسبوقة. لقد دمروا المرفأ المقابل لشقتي حتى سُويِّ بالأرض، وسحقوا مراكز الشرطة. بلغني أن وسائل الإعلام الغربية تمالئ إسرائيل مكررة البيانات الصحفية التي يصدرها الجيش الإسرائيلي بشكل ببغاوي والتي تبعاً لها، فإن الهجمات تستهدف فقط أوكار حماس الإرهابية بدقة تشبه دقة العملية الجراحية.

في الواقع الفعلي، عند زيارة مشفى الشفاء وهو مشفى المدينة الرئيس، والتحديق في الخطوط الفوضوية التي تشكّلها الجثث الملقاة

(١) نسبة إلى مجزرة غيرنيكا التي ارتكبها الدكتاتور الإسباني فرانسيسكو فرانكو عام ١٩٣٧ بقصفه مدينة غيرنيكا الإسبانية بالطائرات والمدفعية، وراح ضحية القصف ١٦٥٤ شخصاً من الجمهوريين الذين كانوا يقاتلون حكمه الدموي (المترجم).

في فنائه فإننا في الغالب ما نرى مدنيين بين أولئك الذين ينتظرون العلاج، مستلقين بشكل عشوائي جنباً إلى جنب جثث أخرى تنتظر دفناً شرعياً.

هل يمكنك أن تتخيل غزّة؟ كل منزل فيها يتكئ على الآخر وكل بناء يرتفع فوق البناء المتاخم. غزّة هي المكان الأعلى كثافة سكانية في العالم والذي يعني أنه عندما تلقي قنبلة من ارتفاع ١٠٠٠٠ متر فإنك بشكل حتمي ستذبح العديد من المدنيين. إنك تعلم ذلك، وبالتالي أنت مذنب ومدان، فهذه الجريمة لم تقع عن طريق الخطأ، وبالتأكيد ليس هنالك أي مجال لتجنّب حصول أضرار جانبية. عندما قصف مركز الشرطة الرئيس في العباس تضررت المدرسة الابتدائية المجاورة أيضاً بفعل الانفجار. كان الوقت نهاية الدوام الدراسي وكان التلاميذ في الشارع. أغلبهم مزقت مريلاتهم السماوية اللون المتناثرة، كانت مضمخة بالدماء.

وعند قصف أكاديمية الشرطة في دير البلح سقط بعض القتلى والجرحى في السوق المجاور، وهو سوق غزّة الرئيس. لقد رأينا الدماء تسيل من جثث الحيوانات والبشر وتمتزج ببعضها لتجري في جداول على إسفلت الطرقات. إنها غيرنيكا تتجلى حقيقة!!

رأيت جثامين عديدة في لباس موحّد في كثير من المشافي التي زرتها، واعلم أن العديد منها يعود لأطفال. اعتدت أن ألقي التحية عليهم كلما أقابلهم في الشارع وأنا في طريقي إلى الميناء أو أتمشى نحو المقهى الرئيس في المساء. أعرف العديد منهم بالاسم. اسم وتاريخ وعائلة متقطعة الأوصال.

كانت الغالبية العظمى من الضحايا شباناً بين الـ١٨ والـ٢٠ من

العمر، وأغلبهم كانوا من دون ميول سياسية. فهم لا يؤيدون فتح ولا حماس، وبكل بساطة انتسبوا إلى قوات الشرطة بعدما أنهوا دراستهم الجامعية لكي يؤمّنوا فرصة عمل في غزّة التي تعيش تحت الحصار الإسرائيلي المجرم حيث وصلت نسبة العاطلين عن العمل فيها إلى ٦٠٪ من السكان. ليس لديّ اهتمام بالدعاية وأنا أدع عينيّ تشهدان، وأبقي أذنيّ مصغيتين لأصوات صفارات الإنذار وقرقعات الـ TNT.

لم أرَ أيّ «إرهابي» بين المصابين هذا اليوم، ليس هنالك سوى مدنيين ورجال شرطة. ليلة البارحة فقط كنت أمرح مع اثنين منهم حول طريقتهم بارتداء القفطان اتقاءً للبرد بينما كانا واقفين أمام منزلي.

أريد الحقيقة لأعوّض لهؤلاء الموتى.

لم يطلقوا ولو طلقة واحدة ضد إسرائيل، كما لم تكن لهم النية في ذلك ما دامت وظيفتهم لا تتطلب ذلك. كانوا يعملون كمراقبين لحركة السير مسؤولين عن الأمن الداخلي. كما إن الميناء كان بعيداً جداً عن الحدود الإسرائيلية على كل حال.

لديّ كاميرا تصوير فيديو، لكنني اكتشفت اليوم مدى فشلي الفطيع كمصّور. بالإضافة إلى أنه ليس لديّ الجرأة على تصوير الجثث المشوّهة أو الوجوه المبللة بالدموع. لا أستطيع التصوير، فأنا نفسي انخرطت بالبكاء.

ذهبت والمتطوعون الآخرون من حركة التضامن الدولية إلى مشفى الشفاء للتبرع بالدم. وهناك تلقّينا اتصالاً يفيد بأن سارة، الصديقة العزيزة، قد قتلت بسبب إصابتها بشظية قرب منزلها في مخيم جباليا للاجئين. كانت شخصاً محبباً بروح مشرقة، وقد خرجت لتشتري الخبز لعائلتها. ذهبت وتركت وراءها ١٣ طفلاً.

تلقيت منذ لحظة مكالمة من توفيق في قبرص، وتوفيق هو طالب فلسطيني أسعفه حظه فغادر معسكر الاعتقال الهائل المسمى غزَّة على ظهر أحد قواربنا التابعة لحركة غزَّة الحرة كي يبدأ من جديد في مكان آخر. سألني إن كنت قد زرت عمه ونقلت سلامه إليه كما وعدته. لقد اعتذرت لأنه لم يكن لديّ الوقت الكافي. وفي جميع الأحوال كان الوقت قد تأخر، لقد دفن تحت الأنقاض في منطقة المرفأ مع آخرين.

أطلقت إسرائيل تهديدها الرهيب بأن ما حصل حتى الآن هو مجرد اليوم الأول من حملة القصف التي قد تستمر لأسبوعين. إنهم يريدون تحويل المكان إلى صحراء، ثم يُسمّونها عمليةً للسلام. في هذا الوقت يأتي صمت العالم (المتحضر) ليصمّ الآذان أكثر من أصوات الانفجارات التي تغطّي المدينة ككفنٍ من الموت والإرهاب.

حافظوا على إنسانيتكم!

الموت ببطء في أثناء إصغاء السمع
من دون جدوى

٢٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨

من: فيتوريو أريغوني

رائحة الفوسفور اللاذعة تملأ الهواء بينما السماء ترتجف بفعل زلزلة الأرض المستمر. أصبحت أذناي صمّاوين بفعل الانفجارات، أمّا عيناي فمملوءتان بالدموع بسبب كل هذه الجثث. وقفت أمام مشفى الشفاء، وهو المشفى الرئيس في غزَّة، عندما تلقينا التحذير الإسرائيلي الرهيب الأحدث: لقد قرروا قصف الجناح الذي في طور البناء. لم يكن ذلك أول استهداف للمشافي، فالبارحة تعرّض مشفى الوئام للقصف، ومستودع الأدوية في رفح، والمشفى الإسلامي، وعدد من المساجد الموزعة في كل أنحاء القطاع، من دون الحاجة إلى ذكر العديد من البنى التحتية التابعة للمواطنين والتي قصفت أيضاً. على ما يبدو، وحين لم تعد قادرة على إيجاد أهداف محسوسة، اتجهت القوات الجوية والبحرية الإسرائيلية إلى قتل الوقت باستهداف أماكن العبادة والمدارس والمستشفيات.

في كل ساعة وفي كل دقيقة تتكرر أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر هنا، والغد هو دائماً يومٌ جديدٌ للحِداد، جالباً معه يأساً يوازي ذلك الحداد. يمكنك ملاحظة الطائرات الحربية والحوامات وهي تجوب السماء بشكل مستمر، ترى وميضاً، لكنك أصبحت هالكاً لا محالة، فقد فات أوان الهروب. لا يوجد في القطاع ملاجئ مضادة للقنابل، وليس هنالك في الواقع مكان آمن. لا أستطيع الاتصال بأصدقائي في رفح ولا حتى بأولئك الذين يعيشون شمال مدينة غزَّة، راجياً أن يكون السبب

هو الضغط على خطوط الاتصالات، آمل ذلك. لم أنم منذ ٦٠ ساعة ويمكن قول الشيء نفسه عن الغزيين.

أمضيت ليلة البارحة برفقة ثلاثة أشخاص من أعضاء حركة التضامن الدولية في مشفى العودة في مخيم جباليا للاجئين. وكنا في حالة ترقب مخيف للهجوم البري الأكثر رعباً والذي لم يسبق له مثيل. لكن الدبابات الإسرائيلية اصطفت على طول حدود القطاع كما تكلمنا، مالئة طريقها بالصرير كما لو كانت في موكب جنائزي. حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف سقطت قنبلة على بعد ٨٠٠ متر من المشفى، فأدت موجة الصدمة الصادرة عن الانفجار إلى نسف العديد من نوافذه وتفتيتها إلى قطع صغيرة، مما أدى إلى جرح النزلاء الجرحى بطبيعة الحال. هرعت سيارة إسعاف إلى مكان وقوع القنبلة حيث قصف أحد المساجد، لكنه ولحسن الحظ كان فارغاً حينها. لسوء الحظ (وبالرغم من أن المسألة ليست مسألة حظ) ضربت القنبلة الإسرائيلية كذلك بناءاً مجاوراً للمسجد فدمِّر تدميراً شبه كامل.

راقبنا بينما كان يتم سحب ستة أجساد بالغة الصغر لستّ أخوات من تحت الركام، خمس منهن قتلى وواحدة بين الحياة الموت. قاموا بتمديد الفتيات الصغيرات على الإسفلت الأسود، فبَدَونَ مثل دمىً محطمةً ومرميةً وكأنها أصبحت غير قابلةٍ للاستعمال. لم يكن قتلهن قد حصل بالخطأ، إنه رعب متعمَّد واستخفافي.

وصل عدد الضحايا حتى هذه اللحظة إلى ٣٢٠ شهيداً وأكثر من ١٠٠٠ جريح، سيواجه حوالى ٦٠٪ منهم مصيرهم الموت خلال الساعات أو الأيام القادمة بعد أن يكونوا قد تحمّلوا المعاناة الطويلة، حسبما قال الأطباء في مشفى الشفاء.

هنالك العديد من المفقودين. خلال اليومين الماضيين كانت هنالك نساء يائسات يبحثن عن أزواجهن أو أبنائهن في المشافي، لكن في الغالب من دون جدوى. كان منظر المشرحة مرعباً. أبلغتني إحدى الممرضات أنه بعد ساعات من البحث بين أشلاء القتلى في الثلاجة، ميزت امرأة فلسطينية يد زوجها المبتورة. كان ذلك كل ما بقي لها من زوجها، بالإضافة إلى محبس الزواج في إصبعه، بقيةُ حبٍّ أبديٍّ كان كلٌّ منهما قد أقسم للآخر على الإخلاص له. خارج أحد المنازل الذي كانت تسكنه عائلتان، تتوضع بعض أشلاء هي ما تبقى منهم، لقد أظهروا لأقاربهم نصف جذع إنسان وثلاث أرجل.

يغادر في هذا الوقت أحد القوارب التابعة لحركة غزَّة الحرة ميناء لارنكا في قبرص. اتصلت بأصدقائي على متن المركب، لقد جمعوا كميات من الأدوية وحمّلوها بإحكام في المركب الذي يجب أن يصل غزَّة غداً حوالى الساعة الثامنة مساء. بدورنا نحن على هذا الطرف نتمنى أن يستمر الميناء في الوجود بعد ليلة أخرى من القصف المتواصل. سأبقى على اتصال بهم في رحلتهم خلال هذه الليلة.

رجاءً، ليوقف أحدٌ ما هذا الكابوس.

إن اختيار البقاء صامتاً يعني بطريقة أو بأخرى تقديم الدعم للذين يقومون بالإبادة الجماعية التي تجري حالياً. فلتصرخوا معبّرين عن نقمتكم في كل عاصمة من عواصم العالم (المتحضّر)، في كل مدينة، وفي كل ساحة، ولتعبّر هذه الصرخات عن الألم والرعب.

هنالك شريحة من البشر تموت بينما تصيخ السمع بألم، بانتظار أية استجابة.

حافظوا على إنسانيتكم!

مصانع الملائكة

٣٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨

من: فيتوريو أريغوني

كانت جباليا وبيت حانون ورفح ومدينة غزَّة المحطات الأولى لرحلتي وفق خريطتي الخاصة إلى الجحيم. مهما نشر الإعلام في أوروبا والولايات المتحدة وردد بطريقة ببغاوية بعضاً مما تقوله القيادة العسكرية الإسرائيلية بعد المرور على الخبراء في التشويش، إلا أنني بذاتي كنت في الأيام القليلة الماضية شاهد عيانٍ على قصف المساجد والمدارس والجامعات والمشافي والأسواق والكثير الكثير من الأبنية المدنية.

أكد مدير مشفى الشفاء أنه قد تلقى اتصالات من عناصر في الجيش الإسرائيلي تأمره بإخلاء المشفى وإلا فإنه سيواجه مصير إمطاره بالصواريخ. لكنهم لن يسمحوا للجيش أن يرعبهم. عليَّ أن أنام في المرفأ (بالرغم من أن أعيننا لم تغمض لمرة واحدة في غزَّة منذ أربعة أيام على الأقل)، هذا المرفأ الذي كان عرضة للقصف المتواصل طيلة الليل. لم تعد تُسمَع أصوات صفارات سيارات الإسعاف خلال جولاتها المحمومة، ولسبب بسيط هو أنه لم تبقَ أرواح حية في الميناء والضواحي المحيطة بها. الجميع أموات، ويبدو الأمر كأنك تدوس في مقبرة إثر وقوع زلزال.

الوضع أشبه ما يكون بوقوع كارثة طبيعية، إنه حقد دفين وثوران كلبي صب فوق رؤوس الناس في غزَّة مثل الرصاص الذائب، ممزِّقاً

الأجساد البشرية إلى قطع. وعلى عكس كل التوقعات، وحَّدَ هذا العدوان الفلسطينيين قاطبة وجمعهم عبر معاناتهم الجماعية مذبحةً شنيعة. كان هنالك أناس لم يُلقوا التحية على بعضهم حتى الفترة الأخيرة وذلك بسبب انتمائهم إلى فصائل متعارضة. لكن عندما يسقط وابل القنابل من السماء على ارتفاع ١٠٠٠٠ متر عليك أن تكون على ثقة بأنها لن تقوم بالتفريق بين الرايات المدلاة من نافذتك سواء أعيدت لحماس أم لفتح. ولن تكون هذه القنابل أقل انفجاراً حتى ولو كنت إيطالياً. كما إنه ليس هنالك ما يسمى بعملية عسكرية أشبه بالجراحية بدقتها. فعندما بدأت القوات الجوية والبحرية قصفها كانت العمليات الجراحية الوحيدة التي جرت هي ما قام به الأطباء بلا تردد بقطع أطراف تحولت إلى ما يشبه العجينة حتى ولو كان بالإمكان إنقاذ تلك الأيادي أو الأرجل. ليس هنالك وقت، عليك بالركض، فالوقت الذي ستمضيه بشكل جديّ بمعالجة الأطراف المصابة ربما يسبب وفاةً للجريح التالي الذي ينتظر بالرتل كي ينقل للعلاج أو إلى ما هو أسوا من ذلك. يوجد في مشفى الشفاء ٦٠٠ مريض مقيم، حالاتهم حرجة إلى حد كبير، مع عدم توفر سوى ٢٩ جهاز تنفس اصطناعي. لديهم نقص في كل شيء وخاصة في الطاقم الخبير.

لهذا السبب بعينه، كنا منهكين (ولا يعود السبب الرئيس لقلة النوم بقدر ما هو بسبب لا مبالاة ورضوخ الحكومات الغربية لإسرائيل في جرائمها). قررنا الليلة الماضية أنه الوقت المناسب لإحدى السفن الأربع التابعة لحركة غزَّة الحرة كي تغادر ميناء لارنكا في قبرص حاملةً طاقماً طبياً وثلاثة أطنان من الأدوية. انتظرتهم لكن من دون جدوى، كان من المفترض أن يرسو مركبهم في الثامنة من هذا الصباح. لكن بدل

ذلك اعترضتهم ١١ سفينة حربية إسرائيلية على بعد ٩٠ ميلاً بحرياً من غزَّة، في محاولة منهم لإغراقهم في المياه الدولية. لقد صدموهم ثلاث مرات مسببين خللاً في عمل المحرك وتسرباً في الهيكل. وبالصدفة المحضة بقي الطاقم والركاب على قيد الحياة وقرروا إرساء المركب في ميناء صور في جنوب لبنان.

ورغم ازدياد إحباط رفاقي بسبب صمت العالم (المتحضر) المصمّ للآذان فإنهم سيقومون بمحاولة ثانية قريباً. في الحقيقة لقد قاموا بتفريغ الأدوية من مركبنا المتضرر المسمى «الكرامة» وحمّلوها على مركب آخر جاهز للإبحار متوجهاً بشكل مباشر نحو غزَّة.

كانت أسئلة بعض الصحافيّين الذين أجروا معي لقاءات تتمحور حول الوضع الإنساني للفلسطينيين في غزَّة وكأن المشكلة تنحصر فقط في الطعام والماء والكهرباء ونقص الوقود أكثر من تمحورها حول من هو المسبّب الفعلي لكل هذا، عبر إغلاقه الحدود وقصفه مراكز الإمداد بالماء ومحطات توليد الكهرباء.

رأيت في مشفى العودة جثثاً لا تُنزَل من سيارات الإسعاف فقط بل من العربات الخشبية التي تقطرها الحيوانات. تقوم الدبابات والطائرات المقاتلة والطائرات بدون طيار وطائرات الأباتشي وأعنف جيش في العالم بمهاجمة أناس يستخدمون الحمير وسيلةَ نقلٍ أساسية لهم، كما في زمن السيد المسيح. وفي الوقت الذي كنا نتكلم فيه مع الصحافيين قتل ٥٥ طفلاً بسقوط قنبلة، بينما دخل ٢٠ شخصاً في حالة احتضار، كما أصيب ٤٠ شخصاً بجروح بليغة وذلك تبعاً لمركز الميزان لحقوق الإنسان.

حولت إسرائيل المستشفيات والمشارح الفلسطينية إلى مصانع

للملائكة، غير مدركة حجمَ الكراهية التي جلبتها لنفسها في فلسطين وبقية العالم. إن مصانع الملائكة تنتج ملائكة عبر خط إنتاج يعمل من دون توقف في هذه الليلة أيضاً: أستطيع الجزم بذلك من أصوات الانفجارات التي يمكنني سماعها من نافذتي.

هذه الجثث المبتورة والمقطعة إلى قطع صغيرة، هذه الحيَوات التي تبددت قبل أن تسنح لها الفرصة بالتفتح، ستبقى كابوساً يتكرر أمامي لبقية حياتي. إذا كان لا يزال بمقدوري إيجاد القوة التي تدفعني للحديث حول هذا، فإن مردّ ذلك هو فقط أنني أريد تحقيق العدالة لهؤلاء الذين لم يعودوا يمتلكون صوتاً، هؤلاء الذين لم يسبق لهم أن حظوا بفرصة إسماع صوتهم ولو لبرهة، ربما كان ذلك في صالح أولئك الذين ليس لديهم آذان يسمعون بها.

حافظوا على إنسانيتكم!

الكارثة غير الطبيعية

١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

حلّت السنة الجديدة مع استمرار توقّع الكآبة والموت اللذين رافقا سابقتها، مضاعفة من قدرتها التدميرية عشرة أضعاف. لم أرَ من قبل قط هذا القدر من القنابل يسقط حول شقّتي أمام المرفأ، حيث سبب انفجار وقع على بعد ١٠٠ مترٍ اهتزازاً قوياً لبنايتنا المؤلفة من سبعة طوابق، جاعلاً إياها تتأرجح كرقّاص ساعةٍ مجنونٍ. وعلى سبيل المثال، عندما انفجرت ألواح زجاج النافذة، اعترانا الخوف من أن البناية ستنقلب. كانت لحظة حاسمة من الرعب صلّيت خلالها وتعلّقت بوهم غير محتمل بأن تكون هذه البناية قد شيدت وفق معايير مقاومة الزلازل، على الرغم من أن مدينة غزَّة قد توضّعت على طول خط من الأرض لا يتعرض للزلازل. أما الزلازل التي تقع حولنا فمسببها نوع غير طبيعي يسمى إسرائيل.

استمرّيت في بحثي المستميت عن هؤلاء الأصدقاء الذين لم يعودوا يجيبون على الهاتف. أبلغني أحمد ونحن في منزله أن أحد الأبنية الذي ما زال قائماً في مركز حيّ تلّ الهوى في مدينة غزَّة أصبح الآن موضوع توقّع سيناريو إيحائي يعيد ما حصل في حي الشيعة في بيروت بعد أن عملت القنابل على تسويته بالأرض في حرب ٢٠٠٦. تلك القنابل التي سقطت يومها تم تصنيعها في ذلك الجزء من العالم عينه الذي صنعت فيه القنابل التي تسقط على رؤوسنا حالياً. احمد وأقرباؤه بخير بالرغم من أن والدته كادت تشرف على الموت يوم السبت الماضي. إنها تُدرِّس

في مدرسة بلقيس التابعة للأونروا. في ذلك اليوم بقيت في صفها فترة أكثر قليلاً من المعتاد، وهو ما ساهم في بقائها على قيد الحياة. فقد دفن العديد من التلاميذ بينما كانوا يقفون في موقف الباص تحت ركامٍ نَجمَ عن انفجار قريب. كما وقعت قنبلة في الليلة الماضية على سيارة أحمد الفستقية اللون والاقتصادية في الوقت نفسه، اذ كان يتجوّل فيها باحثاً عن خبز، في مدينة أصبح يباع فيها الطحين بثمن يعادل ثمن الذهب. بالنسبة إلى رفيق، فقد استطعت في النهاية الوصول إليه عبر الهاتف. بدا صوته الخفيض وكأنه يحاول أن يرتفع من عمق سحيق وطبقة صوته تشي باليأس والحزن بسبب سماعه للتو خبر وفاة ثلاثة من أعز أصدقائه خلال الهجوم على الميناء.

في واحدة من أواخر المقاهي التي لا تزال تعمل في غزَّة والتي تقدم القهوة إضافة إلى خدمة الإنترنيت، ومع ابتسامة سخرية تعلو وجهي، عرضت على صديقين مقالة أخبارية على جهاز حاسوبي المحمول تتحدث عن «قتيل و٣٨٢ جريحاً». لم تكن تلك المقالة تتمحور حول العدد المتوقع لضحايا سقوط صاروخ القسام الذي أطلق نحو إسرائيل البارحة ولم يسبب أذى لأحد، لكن كان ذلك من آثار المذبحة التي سببتها عروض الألعاب النارية التي أطلقت في إيطاليا احتفالاً بالسنة الجديدة. أبلغت أصدقائي أن حماس تكون ساذجة إذا كانت تعتقد أن بإمكانها مقارعة إسرائيل باستخدامها هذه الألعاب المصنوعة محلياً. عليهم أن يأخذوا دروساً في نابلس لصناعة صواريخ قاتلة حقيقية. بالنسبة إليّ، وحيث إنني شخص مسالم ومن دعاة اللاعنف، فإنني أشمئزّ من أي نوع من الهجمات الفلسطينية ضد إسرائيل، لكننا هنا في أشد درجات الغضب من تلك الأقوال المأثورة القديمة والمضجرة التي تقول إن هذه

المذبحة هي ردّ فعل إسرائيل على إطلاق الفلسطينيين لتلك الصواريخ المتواضعة المصنوعة محلياً. ولأجل الدقة، فإنه منذ عام ٢٠٠٢ حتى يومنا هذا لم تؤدِّ صواريخ القسام التي أطلقت على إسرائيل سوى إلى مقتل ١٨ شخصاً فقط، بينما أحصينا يوم السبت الماضي وفي غضون ساعتين فقط سقوط أكثر من ٢٥٠ قتيلاً من المدنيين في مشافي غزَّة.

استعلمت في المقهى حول وقف إطلاق النار الذي دعا إليه الاتحاد الأوروبي ورفضته إسرائيل، مع العلم بأن الاتحاد الأوروبي يستطيع فرضه على إسرائيل حين يشاء، كونه واحداً من تلك الشريحة الواسعة من الذين يزودونها بالتجهيزات الحربية الضخمة التي تحتاج إلى استهلاكها والتي تستجرّها من ترسانة هذا الاتحاد. جميعهم يهزّون رؤوسهم وهم متجهّمون. هل كان هنالك حقاً في يوم ما هدنة قبل هذا الهجوم العنيف على سكان شرعيين مجردين من السلاح؟ في تشرين الثاني/ نوفمبر وحده قتل الجيش الإسرائيلي ١٧ فلسطينياً (ليصبح الإجمالي ٤٣ منذ بدء سريان وقف إطلاق النار). وحتى قبل ذلك، فإن الحصار الإجرامي لغزَّة سببّ وفاة أكثر من ٢٠٠ مريض فلسطيني. أولئك المرضى الذين لديهم موافقات للعلاج في مستشفيات أجنبية مدعمة بالوثائق التي في حوزتهم، وقد منعوا من الخروج إلى أي مكان بسبب إغلاق الحدود. كما دمّر الحصارُ الإجرامي الذي تفرضه إسرائيل الاقتصادَ المترنّح أصلاً مخلّفاً نسبة ٦٠٪ من العاطلين عن العمل، ومجبراً ٨٠٪ من العائلات الفلسطينية على العيش على المساعدات الإنسانية. هذه المساعدات التي تصل بالقطّارة، عابرة الستار الحديدي الذي ضرب حول أكبر سجن مفتوح في العالم غزَّة!

أُجبرنا على إخلاء المقهى بسرعة بعد تلقّي عدد لا يحصى من

مكالمات التهديد بأن المقهى سيقصف وفي غضون دقائق. الجرائم ضد الإنسانية التي تلوّث إسرائيل تلطّخ أيديها بها في هذه الساعة ليس لها مثيل يمكن مقارنتها به. فقد أطلقت طائرة إف ١٦ البارحة عدة صواريخ على سيارة إسعاف في مخيم جباليا للاجئين. توفي الطبيب إيهاب المدهون وممرضه الأمين محمد أبو حصيرة في هذا القصف. لهذا السبب ظهرنا نحن - متطوّعي حركة التضامن الدولية - في مؤتمر صحافي أمام كاميرات محطات التلفزة الفلسطينية الأكثر شعبية. أبلغنا إسرائيل أننا سوف نركب سيارات الإسعاف هذه آملين أن يكون وجودنا فيها، كدوليين، رادعاً، ولو بسيطاً، ضد هذه الجرائم الدموية واللاإنسانية.

أحياناً تصبح أحاديثنا كئيبة إلى حدّ ما: من المحتمل في نهاية هذا الهجوم الدموي الهائل أن يخرج عدد منا إلى هناك ويُجري إحصاءً نهائياً للعدد الكبير من الضحايا الموزعين بين قتلى ومفقودين. أما في الوقت الراهن فإننا نحاول ألاّ نفكر بذلك.

حافظوا على إنسانيتكم!

أرواح تطالب بالعدالة

٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

بينما أكتب هذه الكلمات، تكون الدبابات الإسرائيلية قد دخلت القطاع. بدأ اليوم بالطريقة ذاتها التي انتهى فيها اليوم الذي سبقه، الأرض تهتز تحت أقدامنا، السماء والبحر يتواطئان ضدنا إلى ما لا نهاية في الأعلى، وعلى الأقدار معلّقة مصائر مليون ونصف المليون من الناس الذين خرجوا من مأساة العيش تحت الحصار إلى العيش في كارثة الهجوم الذي يستهدف المدنيين. بدا الأفق مضطرباً بسبب اللهب الذي يغطيه، وكانت أصوات طلقات المدافع تسمع من البحر بينما كانت القنابل تنهمر كالمطر من السماء طيلة الصباح.

قوارب الصيد ذاتها التي اصطحبناها إلى داخل البحر المفتوح منذ عدة أيام ووصلنا بها أبعد من تلك الأميال الستة المفروضة من قبل إسرائيل بحصارها غير القانوني والإجرامي، قد تحولت الآن إلى حطام متفحّم. إذا حاول رجال الإطفاء القضاء على الحرائق فإنهم سيتحولون على الفور إلى أهداف لبنادق الإف١٦[٢] الآلية كما حصل البارحة.

بعد هجوم آخر، وعندما يكون قد عُرف العدد المتوقع للقتلى (إذا كان ذلك ممكناً) سيكون لزاماً إعادة بناء المدينة فوق صحراء من الأنقاض. أعلنت وزيرة الخارجية الإسرائيلية للعالم أنه ليس هنالك حالة طوارئ إنسانية في غزّة. من الواضح أن من يعتبر نفسه المحتكر

(٢) أعتقد أن الكاتب يقصد بنادق الأم ١٦ الآلية الأمريكية الصنع المعروفة (المترجم).

الوحيد للأرقام هو في موقف إنكار لهذه المذبحة وسيكون تماماً مثل الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد الذي أنكر المحرقة ضد اليهود[٣]. إن الفلسطينيين متفقون مع تسيبي ليفني على شيء واحد وهو (كما أبلغني جوزيف، سائق سيارة الإسعاف الذي يدعو ليفني «القاتلة وعميلة الموساد المحترفة السابقة») سيدخل المزيد من الغذاء عبر الحدود لأنه ببساطة لم يدخل شيء في كانون الأول/ ديسمبر، حيث لم يتم السماح بمرور أي شيء عبر سياج الأسلاك الشائكة الذي ضربته إسرائيل. ولكن ما الغاية من بيع الخبز الطازج في مقبرة؟

أولى الأولويات هي وجوب إيقاف القصف بشكل فوري، وقبل تزويد الباقين على قيد الحياة بأي شيء. فالجثث لا تأكل، إنها فقط تؤمّن السماد العضوي للتربة، وفي الوقت الحاضر لم تكن غزَّة أكثر خصوبة مما هي الآن نتيجة تفسّخ الجثث. من جهة أخرى، ينبغي أن تزيد جثث الأطفال المنزوعة الأحشاء والموجودة في المشارح من الشعورَ بالذنب عند أولئك المتفرجين غير المبالين والذين بإمكانهم فعل شيء ما. فقد ظهرت صور الرئيس الأمريكي باراك أوباما وهو يلعب الغولف على شاشات كل القنوات الفضائية العربية في مشهد بدا وكأنه (إحراز) مزيد من ثياب الحداد التي تغطي هذه الأرض (وبحدوث ذلك، فإنه لا يوجد أحد هنا يتوهم بأن أوباما سيصنع الأعاجيب كي يغيّر سياسة الولايات المتحدة بشكل جذري).

(٣) في الحقيقة يصف أحمدي نجاد المحرقة بالخرافة، وهو يشكك بأرقام ضحاياها وتحدث عن استغلالها من قبل إسرائيل. ورعى لهذا الغرض عقد مؤتمر عالمي في طهران عام ٢٠٠٦ لبحث هذا الموضوع. ويتساءل دائماً إذا كانت أوروبا هي من ارتكب هذه المحرقة، فلماذا على الشعب الفلسطيني دفع الثمن وليس أوروبا؟ (المترجم).

فتحت إسرائيل معبر إيريتس البارحة كي تُخرِجَ كل الأجانب الذين ما زالوا يوجدون في غزَّة. ولم يبقَ سوانا نحن أعضاء حركة التضامن الدولية، حيث خاطبنا اليوم الحكومة الإسرائيلية عبر مؤتمر صحافي شارحين لها الدوافع التي ألزمتنا بالبقاء. لقد شعرنا بالاشمئزاز نتيجة فتح المعابر لإخراج الأجانب الذين يعتبرون الشهود العيان الوحيدين لهذه المجزرة، بينما أبقوها محكمة الإغلاق لمنع دخول الأطباء والممرضين الأمميين الذين كافحوا للدخول وإيصال بعض مواد الإغاثة لزملائهم الفلسطينيين الأبطال.

لن نذهب إلى أي مكان لأننا نؤمن بأن وجودنا هنا ضروري لتقديم رواية شاهد عيان للجرائم التي تُقتَرَف بحق سكان مدنيين مجردين من السلاح ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة. لقد وصل عدد الضحايا حتى هذه اللحظة إلى أكثر من ٤٤٥ قتيلاً وأكثر من ٢٣٠٠ جريح، والعديد العديد من المفقودين. وفي الوقت الذي كنت أكتب فيه هذا التقرير قطَّعت قنبلة أجساد ٦٣ من القاصرين إلى أشلاء. في حين لم تعلن إسرائيل حتى هذه اللحظة سوى عن سقوط ثلاثة قتلى في جانبها. لم نَلُذْ بالفرار كما نصحتنا قنصلياتنا لأننا مدركون بأن إسهامنا من خلال وجودنا كدروع بشرية في سيارات الإسعاف التي تقدّم الإسعافات الأولية يمكن أن يكون حاسماً في إنقاذ الأرواح. مرة أخرى قصف الطيران الإسرائيلي الليلة الماضية سيارة إسعاف في مدينة غزَّة. ومنذ يومين توفي طبيبان في مخيم جباليا للاجئين بفعل صاروخ أطلق عليهما من مروحية أباتشي. شخصياً، أنا لن أغادر القطاع لأن أصدقائي ناشدوني ألا أتخلى عنهم، أصدقائي الناجين إضافة إلى القتلى منهم الذين يحتشدون حولي كالأشباح في الليالي التي يجافيني فيها النوم، وجوههم الشفافة ما زالت تبتسم لي.

الوقت: الساعة ٧ و٣٣ دقيقة مساءً، المكان: مشفى الهلال الأحمر في جباليا. وبينما كنت متصلاً عبر الهاتف مع حشود المتظاهرين في ميلانو سقط العديد من القنابل أمام المشفى. تحطّم الزجاج الأمامي، ولحسن المصادفات لم تتضرر سيارات الإسعاف. أصبح القصف أكثر تكراراً وقوة في الساعات الأخيرة. وقد انهار مسجد إبراهيم المقدم بشكل جزئي بفعل القنابل: إنه المسجد العاشر الذي يدمّر خلال أسبوع. لقد قتل ١٢ شخصاً بفعل قصف هذا المسجد وجرح ٥٠ آخرون. استوقفتني سيدة مسنّة قابلتها في الشارع بعد الظهر لتسألني إن كانت إسرائيل تظن نفسها تعيش فترة القرون الوسطى أم عام ٢٠٠٩، إذا أخذنا في الاعتبار الطريقة التي تستمر فيها بضرب المساجد بهذه الدقة. يبدو الأمر وكأنها تركز على حرب مقدسة شخصية ضد مراكز العبادة الإسلامية في غزَّة.

انهمار شديد آخر للقنابل يضرب مخيم جباليا، لتدخل بعده الدبابات. هذه الدبابات التي روّعت المناطق الحدودية بصرير جنازيرها، ها هي الآن تدخل شمال غرب قطاع غزَّة وتدمر البيوت عن بكرة أبيها متراً تلو متر. إنهم يدفنون ماضي ومستقبل كل العائلات والمواطنين الحاليين الذين طردوا من أرضهم بطريقة غير شرعية، هؤلاء البشر الذين لم يجدوا أي شكل من الملاجئ التي يمكنها إيواءهم سوى تلك الأكواخ في مخيمات اللاجئين.

هُرعنا خارجين إلى جباليا إثر سقوط وابل من التهديدات المرعبة من السماء ليلة الجمعة الماضية: عبارة عن مئات من الوريقات الصغيرة قذفت من الطائرات حاملةً أوامر بإخلاء مخيم اللاجئين إخلاءً تماماً. لسوء الحظ تم تنفيذ هذا التهديد. قرر الناس الأكثر ثراء النجاة بشكل

فوري حاملين معهم بعض الممتلكات من قبل جهاز تلفزيون وجهاز عرض DVD وبعض القطع التذكارية من تلك الحياة التي وجدت مرة على أرض فلسطين، هذه الأرض التي فُقِدَت منذ ما يقارب الستين عاماً. لم تجد الغالبية العظمى من السكان مكاناً ترحل إليه. سوف يواجهون تلك الدبابات التواقة لإزهاق أرواحهم بسلاح وحيد ترك لهم، وهو شرف الموت ورؤوسهم شامخة.

رفاقي وأنا مدركون الخطر الضخم الذي سنواجهه هذه الليلة أكثر من أي ليلة أخرى. لكننا أكثر شعوراً بالارتياح لوجودنا وسط هذا الجحيم الغزي من استرخائنا في نعيم حضري في أوروبا أو أمريكا، حيث يحتفل الناس بقدوم العام الجديد، غير واعين حقاً لدرجة تواطئهم في تلك اللحظة مع عملية ذبح كل هؤلاء المدنيين.

حافظوا على إنسانيتكم!

أطباء لهم أجنحة: عرفة عبد الدايم

٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

«إلى أهالي غزَّة الأبرياء: إن حربنا ليست موجهة ضدكم بل ضد حركة حماس، إذا لم يوقفوا إطلاق الصواريخ ضدنا فأنتم في خطر». تلك هي الرسالة التي يخرج بها تسجيل يمكنك سماعه الآن لدى رفعك سماعة الهاتف للرد على المتصل. الجيش الإسرائيلي يعيش حالة توهُّم أن الفلسطينيين ليس لديهم عيون أو آذان. فلا عيون كي ترى أن القنابل تضرب أهدافاً مدنية على الأغلب، وبشكل خاص المساجد (التي بقصف مسجد عمر بن عبد العزيز في بيت حانون يكون قد وصل عدد المساجد المستهدفة إلى ١٥)، والمدارس والجامعات والأسواق والمشافي. ولا آذان كي تسمع صرخات الأطفال الناتجة عن الألم، هؤلاء الأطفال الذين يعتبرون ضحايا بريئة، وفي الوقت نفسه، كان قد تم اتخاذهم مسبقاً هدفاً لأعمال القصف هذه. تبعاً لسجلات المشافي وحتى كتابة هذه السطور، فإن ١٢٠ من القاصرين قد تم استهدافهم بالقنابل، وبلغت الخسائر في الأرواح ٥٤٨ حتى هذه اللحظة، بالإضافة إلى ٢٧٠٠ جريح وعدد أكبر من المفقودين.

منذ يومين لم يتم التمييز بين الليل والنهار في مشفى الهلال الأحمر في مخيم جباليا للاجئين. فطائرات الأباتشي تمطرنا بشكل متواصل بالقنابل المضيئة لدرجة لم يعد باستطاعتنا التمييز فيها بين الليل والنهار. وقد أحدثت نيران المدفعية المتكررة الصادرة عن دبابة تتمركز على بعد أقل من كيلومتر من المشفى فتحات خطيرة في جدران

المشفى، لكن تم تدبّر طريقة لإبقائها صامدة وسليمة إلى حد ما حتى الصباح. أُطلقت عشر قنابل من الفوسفور الأبيض على الحقل المجاور بالتزامن مع إطلاق نيران الرشاشات التي تنفجر في كل مكان. بالنسبة إلى أطباء مشفى الهلال الأحمر، يعتبر هذا القصف رسالة واضحة من الجيش الإسرائيلي تتضمن أمراً بالإخلاء الفوري للمشفى، أو ستواجه التدمير المحتّم. نقلنا الجرحى إلى مشفى آخر واتخذنا من شارع النادي مقراً لسيارات الإسعاف العاملة. أما طاقم هذه السيارات الطبي فقد جلس على الرصيف منتظراً النداءات التي أتت الواحد تلو الآخر بشكل مسعور.

للمرة الأولى منذ بداية العدوان الإسرائيلي، رأيت بالفعل جثثاً لرجال من المقاومة الفلسطينية. حفنة من الأفراد بجانب مئات من الضحايا المدنيين الذين تصاعد عددهم بعد الشروع بالهجوم البرّي. في أعقاب إطلاق النار على مسجد جباليا الذي خلف ١١ قتيلاً وخمسين جريحاً، وهو ما حصل بينما كانت الدبابات تدخل القطاع، وطيلة يوم السبت، ومن على متن سيارات الإسعاف، أدركنا وقتها تماماً كم كانت جبارة وقوية بشكل مرعب تلك القذائف التي تطلقها الدبابات الإسرائيلية، وكأن الأيام السابقة كانت تفتقر إلى القوة التدميرية.

تم استهداف إحدى العائلات في بيت حانون بينما كانت مجتمعة أمام مدفئة حطب، بقذيفة من قذائف المدفعية القاتلة التي سقطت على منزلها. أسعفنا ١٥ جريحاً بينهم ٤ في حالات ميؤوس منها. في ما بعد، وحوالى الساعة الثالثة والنصف صباحاً أجبنا على نداء استغاثة، إلا أننا وصلنا بعد فوات الأوان. ثلاث نسوةٍ كنَّ يقفن أمام الباب الخارجي لمنزلهن وهنّ ينتحبن، قمن بتسليمنا فتاة في الرابعة من عمرها ملفوفة

بخرقة بيضاء، أصبحت كفنها، وقد كانت ببرودة الحجارة في ذلك الوقت. عائلة أخرى في مخيم جباليا ضُربت عن بكرة أبيها، لكن هذه المرة بواسطة الطائرات الحربية. جرحت فتاتان بالغتان بفعل الشظايا. تأذى صبيَّان من العائلة بشكل طفيفٍ، لكن صياحهما يدلّ على أنهما يعانيان صدمة نفسية، وهي ما سيحملانه معهما طيلة حياتهما كضرر يبدو أعمق من أي ندبة على خديهما. ورغم ذلك ليس هنالك من أحد يتذكرهما أو يشير إليهما، كما إن هنالك آلافاً من الأطفال الذين يعانون مرضاً عقلياً حقيقياً تسبّب به الرعب الناتج عن القصف المتواصل، أو تسبب به ما هو أسوأ من ذلك، ألا وهو مشاهدة أهلهم أو أشقائهم وقد تقطّعوا لأشلاء بفعل الانفجارات.

إن الجرائم التي تلطّخ إسرائيل أيديها المدمّاة بها في هذه الساعات تتخطى كثيراً حدود ما يمكن تخيّله. يمنعنا الجنود من التحرك لتقديم المساعدة للناجين من الكارثة الهائلة التي ليست بفعل الطبيعة. عندما يكون الجرحى ممددين بقرب العربات المدرعة التي هاجمتهم للتو، يكون من غير المسموح لنا نحن القابعين في سيارات الهلال الأحمر الوصول إلى أية نقطة قريبة منهم، لأن الجنود يعمدون إلى تسديد البنادق نحونا. فقبل أن يكون باستطاعتنا عقد الأمل على التوجه نحو أي حياة إنسانية لتقديم العون إليها، نحتاج إلى مرافقة سيارة واحدة على الأقل من السيارات التابعة للصليب الأحمر وذلك بفضل الاتفاقية الموقعة بين الصليب الأحمر والقيادة العليا للجيش الإسرائيلي. حاولْ فقط أن تلجأ إلى طلب ذلك وتخيّلْ كم من الوقت ستأخذ هذه الإجراءات التي هي بمثابة حكم الإعدام لكل هؤلاء الذين ينتظرون كي يتم نقلهم أو أن يحظوا بالعناية السريعة. تتعزز هذه الحقيقة حين نعلم أن الصليب

الأحمر لديه جرحاه الذين يجب عليه أن يسعفهم والذين لا يتركون له مجالاً للرد على كل مكالمة من مكالماتنا. يجب علينا والحالة هذه أن نركن السيارة في منطقة «آمنة»، وعبارة «منطقة آمنة» أصبحت تلطيفية في غزَّة، وننتظر الناس كي يحضروا أقاربهم المحتاجين للعناية إلينا وغالباً ما يحملونهم ويجيئون مشياً على الأقدام.

إليكم ما حصل معنا في الساعة الخامسة والنصف من فجر هذا اليوم. أوقفنا سيارة الإسعاف ولكن من دون إطفاء المحرك في وسط تقاطع، وكنا نحاول أن ندل أقارب أحد المرضى الذين كانوا في طريقهم إلينا على مكاننا بالهاتف. وبعد عشر دقائق من الانتظار المثير للأعصاب قررنا أن نخلي المكان لتلبية نداء آخر تلقّيناه لمحناهم وهم ينعطفون قادمين نحونا ببطء، كانت عربة يجرها بغل محملة ببعض الأناس. تبين أنهم زوجين وولداهما. إن ذلك هو أفضل صورة يمكن بها وصف هذه اللاحرب. لأن هذه الحرب ليست حرباً تقليدية. فليس هنالك جيشان يتعاركان في جبهة واحدة، بل شعب يعاني حصاراً فرضته عليه طائرات حربية مقاتلة وقوات بحرية وواحدة من أكثر عناصر المشاة قوة في العالم، وبالتأكيد مصحوبة بأكثر التكنولوجيات تقدماً في مجال التجهيزات العسكرية. إنهم هنا يهاجمون قطاعاً بائساً من الأرض مساحته فقط ٣٦٠ كم^{2}، مكان ما زال السكان يستخدمون فيه البغال للتنقل، ومقاومته هي خليط من فصائل عدة تكمن قوتها الحقيقية الوحيدة في استعدادها للشهادة.

عندما اقتربت العربة التي يجرها البغل بشكل كافٍ، دنونا منهم ونظرنا برعب إلى الشحنة المخيفة التي تحملها. كان هنالك طفل مستلقٍ وجمجمته مفتوحة، وبكل دقة كانت كرتا عينيه متدليتان خارج

محجريهما، تتمايلان في وجهه مثل تَيْنِك العينين اللتين في نهاية قرني سرطان بحريّ. عندما حملناه كان لا يزال يتنفس. أما أخوه الأصغر فقد انتزعت أحشاء صدره، ويمكنك بوضوح إحصاء عدد أضلاعه البيضاء من خلال لحمه الممزق. كانت والدتهما تضغط بكلتا يديها على ذلك الصدر المنزوع الأحشاء، وكأنها تحاول إصلاح ما عملت على خلقه ثمرة حبها، وما قد عملت الكراهية المجهولة المصدر التي يحملها الجنود على كسره إلى الأبد هذه اللحظة. ما زال هنالك جريمة أخرى أريد أن أكتب عنها وهناك أيضاً حِدادنا الذي لا تحصى عدد مراته.

تابع الجيش الإسرائيلي استهداف سيارات الإسعاف. فبعد ذبح الطبيب والممرضة في جباليا منذ أربعة أيام، كانت الضحية الجديدة لهذا اليوم هي أحد أصدقائنا: إنه عرفة عبد الدايم ذو الـ ٣٥ عاماً والأب لأربعة أطفال. تلقينا مكالمة هاتفية من مدينة غزَّة في الساعة الثامنة والنصف من صباح أمس. لقد أصيب مدنيان برصاصات رشاش دبابة. فاندفعت إحدى سيارات الإسعاف التابعة للصليب الأحمر لتقديم المساعدة لهما. كان عرفة وأحد الممرضين يمددان الجريحين في سيارة الإسعاف، وبينما كانا يغلقان باب السيارة أطلقت إحدى الدبابات قذيفتها عليهما.

أصابت القذيفة عنق واحد من الجرحى وقتلت صديقنا عرفة. تمكن الممرض نادر الذي كان يرافقهم من النجاة، وقد خرج للعمل بالرغم من أنه كان مريضاً في المشفى التي يعمل فيها. عرفة الذي يعمل مدرساً في المدرسة الابتدائية كان يساهم متطوعاً كمسعف طوارئ. كنا قد أُمطرنا بالقنابل ولكن لم يطاوعنا قلبنا للاتصال بعرفة في حالة خطيرة جداً كهذه. وهو يقدم على هذا العمل طوعاً وبإرادته، ويقوم به

رغم علمه التام بحجم المخاطر التي يضع نفسه فيها، مقتنعاً، وبينما هو على هذه الحال بعيداً عن عائلته، أن هنالك بشراً آخرين بحاجة للحماية والمساعدة. لقد افتقدنا مزاحه وروح الدعابة المُعدي لديه والذي لا يمكن مقاومته، وافتقدنا بلسم الروح في لحظاتنا الكئيبة.

على أحدٍ ما أن يوقف هذه المذبحة. في الأيام القليلة الماضية رأيت أشياء وسمعت صخباً وشممت أبخرة نتنة ومهلكة، لن تكون لديّ الشجاعة لأتحدث عنها إذا ما قُدِّر وأصبح لديّ أطفال. هل من أحد هناك؟ تعاسة شعور الإنسان بالعزلة وأنه تم التخلي عنه هو الشعور نفسه الذي يوازيه منظر أحد أحياء غزَّة بعد غارة جوية كبيرة. مساء السبت تم وصلي عبر الهاتف مع الحشود المحتجة في ميلانو، قمت بتمرير جهاز الهاتف للأطباء والممرضين الأبطال الذين أعمل معهم في الوقت الحالي. لقد بدا الاطمئنان عليهم للحظات قليلة. المظاهرات التي تعمّ العالم هي دليل على أنه لا يزال هنالك أحد ما يمكنك الوثوق به، لكن لا تزال هذه المظاهرات غير كبيرة بشكل كاف كي تمارس الضغط المطلوب على الحكومات الغربية التي عليها أن تضع إسرائيل في الزاوية، مجبرة إياها على تحمّل المسؤولية عن جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية التي ترتكبها.

العديد من النساء الحوامل المرتعبات يضعن مواليدهن قبل الأوان في هذه الفترة. كنت شخصياً حاضراً مع ثلاثٍ منهن بينما كنّ مندفعات إلى غرفة الولادة. إحدى هذه النسوة هي سميرة التي أنجبت مولودها الصغير جداً والجميل الذي سمي أحمد، بعد سبعة أشهر من الحمل. وبينما كنت مندفعاً وإياها على متن سيارة الإسعاف نحو مشفى العودة تاركين خلفنا ما بدا عبر مرآة السيارة على أنه سيناريو الدمار والموت

(في الأماكن التي كنّا منذ لحظات نلتقط منها الجثث). فكرت للحظة بأن هذه الحياة الجديدة التي على وشك التفتح يمكنها أن تكون بشارة أملٍ وسلامٍ قادمَيْن في المستقبل. لكن الوهم سرعان ما تلاشى مع أول قذيفة من مركز جباليا سقطت بجانب سيارة الإسعاف التي تقلّنا. تلك الأمهات الشجاعات اللواتي ولدنَ بحزن مخلوقات لم تشاهد شيئاً في محيطها سوى اللون الأخضر للدبابات وعربات الجيب العسكرية، أو الومضات السريعة التي تسبق الانفجار. أي نوع من البالغين سيكونونه عندما يكبرون؟

حافظوا على إنسانيتكم!

النكبة

٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

إنهم يمشون في مواكب وهم خائفون، عيونهم شاخصة نحو الأعلى، مستسلمون للسماء التي ما زالت تمطر عليهم رعباً وموتاً، متخوّفين من الأرض التي تواصل ارتجافها تحت أقدامهم في كل خطوة يخطونها، ومن الحفر التي تنفتح في الأماكن التي كانت مرة منازل ومدارس وجامعات وأسواقاً ومشافٍ. رأيت قوافلَ لفلسطينيين يائسين يُخلون جباليا وبيت حانون وكل مخيمات اللاجئين في غزَّة للتجمهر في المدارس التابعة للأمم المتحدة وكأنهم ناجون من زلزال، أو أنهم ضحايا تسونامي يقضم قطاع غزَّة وسكانه المدنيين من دون شفقة، أو التزام بحقوق الإنسان أو اتفاقيات جنيف. والأهم من ذلك، من دون أن تقوم ولو دولة غربية واحدة برفع إصبعها لإيقاف هذه المجزرة أو أن ترسل طاقماً طبياً إلى هنا أو توقف الإبادة الجماعية التي تلطّخ إسرائيل يديها فيها في هذه الساعات.

تستمر الهجمات العشوائية ضد المشافي وأطقمها الطبية؛ فالبارحة، وبعد مغادرتي مشفى العودة في جباليا، تلقيت مكالمة هاتفية من ألبيرتو زميلنا الإسباني في حركة التضامن الدولية، يفيد بأن قنبلة قد ألقيت على المشفى وأن الممرض أبو محمد قد أصيب إصابة بالغة في رأسه. ومنذ دقائق قليلة كنت أمام المقهى أستمع إلى قصص عن الأعمال البطولية لأبطال أبو محمد الشيوعيين، قادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين: جورج حبش وأبو علي مصطفى وأحمد سعدات. أشرقت عيناه عندما

أخبرته بأن فهمي الأول لفلسطين ومأساتها الهائلة قد وصلني بالكامل عن طريق والديَّ الشيوعيين. سألني من كان أكثر قادة اليسار الإيطالي ثورية؟ فأجبته: إنه (أنطونيو غرامشي). أما بالنسبة إلى قادة اليسار هذه الأيام فقد أخبرته أنني سأفكر بالموضوع وأبلغه في اليوم التالي. لكن أبو محمد يقبع الآن في غيبوبة في المشفى ذاته الذي يعمل فيه. لقد وفّر على نفسه الإجابة المخيبة للآمال.

تلقيت حوالى منتصف الليل مكالمة، من إيفا هذه المرة، تقول إن البناء الذي توجد فيه يتعرّض للهجوم في هذه اللحظات. إنني أعرف ذلك البناء جيداً: إنه في مركز مدينة غزَّة. أمضيت إحدى الليالي هنالك بصحبة بعض المصورين الصحافيين الفلسطينيين الذين يتطلب منهم عملهم محاولة التقاط شيءٍ من خلال الصور والكلمات عن الكارثة التي لم تتسبب بها الطبيعة والتي نقاسيها طيلة الأيام العشرة الأخيرة. ويعمل في هذا البناء وكالة «رويترز» و«فوكس نيوز» و«روسيا اليوم» والعديد العديد من وكالات الأنباء المحلية والأجنبية وجميعها أصبحت عرضة لقصف إحدى المروحيات الإسرائيلية التي أطلقت سبعة صواريخ عليه. تمكّنوا من إجلاء الجميع في الوقت المناسب قبل أن يصاب أي شخص بجروح خطيرة. كل أولئك المصورين التلفزيونيين والفوتوغرافيين والمراسلين، وجميعهم فلسطينيون، قد سلّموا بأن إسرائيل لن تسمح بوجود صحافيين دوليين في غزَّة. لا توجد أية أهداف استراتيجية بجانب ذلك المبنى، ولا مقاومين يقاتلون المدرّعات الإسرائيلية القاتلة التي تتمركز على مسافة بعيدة باتجاه الشمال.

من الواضح أن أحداً ما في تل أبيب لا يمكنه تحمّل صور المجازر ضد المدنيين، وهو يعارض تلك الأوامر التي يصدرها الضباط

الإسرائيليون، بينما يقدّم الصحافيون المرتزقة مشهياتهم في مؤتمراتهم الصحافية. تقنع هذه المؤتمرات الصحافية العالم بأن غرض القصف هو استهداف «إرهابيّي» حماس فقط، وليس أي أحد من هؤلاء الأطفال الذين تم تشويههم بشكل وحشي والذين نسحبهم من تحت الأنقاض يومياً. في حي الزيتون الذي يبعد ١٠ كيلومترات عن جباليا، انهار بناء بفعل القصف على عائلة مخلفاً عشرة قتلى. وقد انتظرت سيارات الإسعاف لساعات عدة قبل أن تتمكن من الوصول إلى تلك المنطقة بسبب إصرار الجنود الإسرائيليين على إطلاق النار علينا. إنهم يطلقون النار على سيارات الإسعاف ويقصفون المستشفيات. منذ عدة أيام وبينما كانت محطة إذاعية معروفة جيداً في ميلانو تجري معي لقاءً مباشراً أشار أحد دعاة السلام الإسرائيليين لي بكل وضوح أنه في هذه الحرب يستخدم كلا الطرفين جميع الأسلحة المتوفرة لديه. عندها دعوت إسرائيل إلى أن تلقي إحدى قنابلها النووية علينا، تلك الأسلحة التي يخفونها بعيداً ويتحدّون بذلك جميع اتفاقيات الحد من الانتشار النووي. لماذا لا تلقي تلك القنبلة التي تمتلكها وتضع حداً للمعاناة اللاإنسانية لآلاف الأشخاص الممددين في خرقهم التي يرتدونها في ردهات المشافي الشديدة الاكتظاظ التي زرتها؟

التقطت البارحة بعض الصور بالأبيض والأسود لقافلة من العربات التي تجرها البغال والمحملة فوق طاقتها بشكل لا يمكن تصوّره بالأطفال الذين يلوّحون بالرايات البيض نحو السماء ووجوههم شاحبة ومرتعبة. وأنا أتأمل الصور السريعة لهؤلاء اللاجئين الهاربين، كانت الرعشات تتتابي وتصل إلى أسفل عمودي الفقري. إذا كان يمكن مطابقة هذه الصور مع صور أولئك الذين يمثلون نكبة عام ١٩٤٨ فإنهم

سيكونون أتقن صورة مطابقة لهم. تتحمل الدول والحكومات الجبانة وغير المبالية والتي تدّعي الديمقراطية المسؤولية الكاملة عن المأساة الجديدة، إنها نكبة جديدة، نوع جديد من التطهير العرقي الذي يلحق بالفلسطينيين الآن.

حتى لحظات قليلة أحصينا ٦٥٠ قتيلاً بينهم ١٥٣ طفلاً بالإضافة إلى ٣٠٠٠ جريح وعدد غير معروف من المفقودين. أما عدد القتلى من المدنيين الإسرائيليين فلا يزال ثابتاً على الرقم ٤. لكن بعد ظهر هذا اليوم تتطلب الخسائر في الأرواح في الجانب الفلسطيني إعادة إحصاء، منذ أن شرع الجيش الإسرائيلي بمهاجمة مدارس الأمم المتحدة التي وفرت الملجأ للآلاف الذين أخرجوا من منازلهم تحت تهديد الهجوم الوشيك. لقد طاردوهم خارج مخيماتهم وقراهم، فقط من أجل تجميعهم في مكان واحد كي يصبحوا هدفاً سهلاً. هاجموا ثلاث مدارس اليوم، المدرسة الأخيرة كانت تسمى الفاخورة في جباليا وقد استُهدفت بضربة شديدة في الوسط. قتل أكثر من ثمانين شخصاً في خفقة قلب، رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً ممن صدّقوا أنفسهم أنهم في مأمن داخل تلك الجدران الزرقاء اللون المزينة بشعار الأمم المتحدة!

الناس الذين لجأوا إلى المدارس العشرين الأخرى التابعة للأمم المتحدة يرتعدون خوفاً الآن. ليس هنالك أي مخرج إلى أي مكان خارج قطاع غزّة. هذا ليس لبنان حيث المدنيون في القرى الجنوبية المستهدفة بالقنابل الإسرائيلية يمكنهم الهروب إلى الشمال أو إلى سورية أو الأردن. فمن خلال كونه سجناً هائلاً في الهواء الطلق أصبح قطاع غزّة فخاً مميتاً. نظرنا بعضنا إلى بعض بذهول متسائلين: إن كان مجلس الأمن سيدين بالإجماع هذه الهجمات بعد أن استهدفت مدارسه. إن

أحداً ما في الخارج قد قرر بحق تحويل هذا المكان إلى صحراء ويقوم بعدها بتسمية ذلك سلاماً.

تنتظرنا الآن ليلة طويلة في سيارة الإسعاف، على الرغم من أن الفجر هنا قد أصبح لا شيء إلاّ وهم. أبراج هوائيات الهواتف النقالة على طول القطاع قد دمرت وقد توقفنا عن الاعتماد عليها لخدمة هواتفنا. آمل أنني يوماً ما سأكون قادراً على رؤية كل أصدقائي الذين لم أعد أستطيع الاتصال بهم، لكنني لست واقعاً تحت أي وهمٍ. في فترة الظهر يصبح كل شخص في غزَّة هدفاً متحركاً. لقد اتصلت بي القنصلية الإيطالية للتو قائلين إنهم سيخلون غداً شخصاً من التابعية الإيطالية، وهي راهبة مسنّة أمضت السنوات العشرين الأخيرة تعيش بقرب الكنيسة الكاثوليكية في غزَّة والتي قد تم تبنّيها من قبل الفلسطينيين في القطاع. حثني القنصل بلطف على استغلال هذه الفرصة لأهرب مع الراهبة من هذه الجهنم. شكرته على هذا العرض وقلت له إنني لن أبرح هذا المكان، بكل بساطة أنا لا أستطيع. فإكراماً للخسائر التي عانيناها قبل أن نكون إيطاليين وإسبانيين وبريطانيين أو أستراليين، نحن الآن جميعنا فلسطينيون. لو كنا قادرين على أن نصبح كذلك ولو لدقيقة واحدة فقط كل يوم بالطريقة التي كنا فيها جميعاً يهوداً أثناء الهولوكست لكنا حسب ما أعتقد قد تجنّبنا المذبحة الحالية.

حافظوا على إنسانيتكم!

المقاليع في مواجهة قنابل الفوسفور الأبيض

٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

«خذ بعض القطط، قططاً صغيرةً ناعمةً، ضعها في صندوق من الكرتون»، قال جمال الذي يعمل جراحاً في مشفى الشفاء وهو المشفى الرئيس في غزَّة بينما وضع أحد الممرضين أمامنا صندوقين من الكرتون ملطخين بالدم. علّق جمال: «اختمه! وبعدها اقفز عليه بكل ثقلك وقوتك حتى تشعر بأن العظام الصغيرة قد انطحنت، ثم تسمع المواء الأخير المكتوم». حدقت بالصناديق بدهشة وتابع الطبيب: «حاول أن تتخيل ما قد يحدث بعد أن يتم توزيع صور هذا الصندوق. غضبٌ لدى الرأي العام ناجمٌ عن دوافع أخلاقية، إضافة إلى احتجاجات جمعيات الرفق بالحيوان...». استمر الأطباء على هذا المنوال وأنا كنت غير قادر على إشاحة نظري عن الصناديق التي عند أقدامنا. «أوقعت إسرائيل مئات المدنيين في فخ عبر حصارهم في مدرسة وكأنهم في صندوق وكان بينهم أطفال ثم عملت على سحقهم بقنابلها القوية. ماذا كان رد فعل العالم؟ تقريباً لا شيء. كان من الممكن أن نكون أفضل حالاً لو كنا حيوانات أكثر من كوننا فلسطينيين، فقد كان يمكن أن نكون محميين».

عند كلامه حول هذه النقطة انحنى الطبيب على أحد الصناديق وفتح غطاءه أمامي. كان في داخله أطراف مبتورة، أذرع وأرجل، بعضها من الركبة إلى الأسفل، أعضاء أخرى مع عظم الفخذ ملحقاً بها، الأعضاء المبتورة كانت قد أصيبت في مدرسة الفاخورة التابعة للأمم

المتحدة في جباليا والتي وصل عدد المصابين فيها إلى ٥٠. متذرعاً بالرد على مكالمة طارئة، أستأذنت من جمال وهُرعت نحو دورة المياه لأتقيأ. قبل هذه الحادثة بقليل كنت منخرطاً في نقاش مع دكتور عبد، وهو طبيب عيون، حول إشاعات تتحدث عن قيام الجيش الإسرائيلي بإمطارنا بقنابل غير تقليدية تحرّم معاهدة جنيف استخدامها مثل القنابل العنقودية والفوسفور الأبيض. قنابل مشابهة تماماً لتلك التي استخدمها الجيش الإسرائيلي خلال حربه الأخيرة على لبنان والتي استخدمتها أيضاً الطائرات الحربية الأمريكية في الفلوجة في انتهاك سافر للقوانين والمواثيق الدولية.

أمام مشفى العودة شهدنا وصوّرنا تساقط قنابل الفوسفور الأبيض على بعد حوالى ٥٠٠ متر من مكان وقوفنا، وهي المسافة البعيدة بشكل كاف لمنعنا من التأكد من وجود أي مدنيين تحت طائرة الأباتشي الإسرائيلية، لكن الحدث كان قريباً جداً جداً مع ذلك. تحرّم معاهدة جنيف لعام ١٩٨٠ استخدام الفوسفور الأبيض كسلاح في مناطق وجود المدنيين، وتسمح به فقط كستارة دخان للتمويه أو للإضاءة. لا شك بأن استخدام هذا السلاح في غزّة التي تعتبر أرضها المنطقة الأكثر كثافة سكانية في العالم، يُعدّ جريمة حرب.

أخبرني الدكتور عبد بأنه ليس لديهم في مشفى الشفاء القدرة الطبية أو العسكرية لكي يتأكدوا من افتراضهم ان الجراح التي يختبرونها على بعض الجثث قد حصلت بالتأكيد بفعل أسلحة محرّمة. لكنه قال كلمته الفصل وهي أنه وخلال عشرين عاماً أمضاها في عمله لم يرَ قط إصابات كتلك الموجودة على الجثث الموجودة في الممر. لقد أبلغني عن الصدمات المصابة بها الجماجم، مع تلك الكسور التي تصل إلى

عظمة في التجويف الأنفي والفك وعظام الخد وقنوات الأنف وعظام الأنف والحنك جميعها تظهر علامات اصطدام قوة هائلة مواجهة لوجه الضحية. ما وجده، وهو شيء غير قابل للتوضيح، كان الفقدان التام لكرتي العينين اللتين من المفترض أن تتركا أثراً في مكانٍ ما ضمن الجمجمة حتى بوجود تلك الصدمة العنيفة. بدلاً من ذلك نراهم يجيئون إلى المشفى بجثث لفلسطينيين من دون أية عيون على الإطلاق وكأن أحداً ما قد اقتلعهما جراحياً قبل أن يسلّم الجثث إلى قاضي التحقيق في الجرائم.

سمحت لنا إسرائيل بأخذ العِلم أنها قد أغدقت علينا بكرمها: ثلاث ساعات من وقف إطلاق النار اليومي بين الساعة الواحدة والرابعة بعد الظهر. بيانات القيادة العسكرية الإسرائيلية تعتبر بالمكانة ذاتها من درجة الثقة التي تحظى بها تصاريح قادة حماس في ما يخص قيامهم بتنفيذ مجزرة بالجنود الإسرائيليين. ولأكون أكثر وضوحاً حول هذه النقطة، إن عدوّ تل أبيب الأسوأ هو ذاته ذلك الذي يحارب تحت ظل نجمة داوود. البارحة غادرت سفينة حربية ميناء غزَّة حاملة على متنها مجموعة كبيرة ممن يعتقد أنهم فدائيون من المقاومة الفلسطينية متحركين كجبهة متّحدة حول جباليا. لقد أطلق الإسرائيليون نيران مدافعهم عليها. لكن، وكما تبين فيما بعد، كان أولئك هم جنودهم أنفسهم وقد نتج عن القصف قتل ثلاثة جنود وجرح نحو عشرين آخرين.

لا تنطلي على أحد هنا مزاعم وقف إطلاق النار الذي دعت إليه إسرائيل، فكما حصل في الساعة الثانية من بعد ظهر هذا اليوم، كانت رفح موضع هجوم مروحية أباتشي. كما وقعت مجزرة أخرى بحق الأطفال في جباليا: ذبحت ثلاث أخوات صغيرات بعمر سنتين

وأربع سنوات وستّ سنوات من عائلة عبد ربه. ومنذ نصف ساعة فقط كانت سيارة إسعاف تابعة لمشفى الهلال الأحمر تتعرض للقصف. كان رفيقاتي من حركة التضامن الدولية، إيفا وألبيرتو، راكبين في تلك السيارات وقد عملا على تصوير كل ما حصل، ومرّرا جميع تلك الأفلام والصور إلى وسائل الإعلام الرئيسة كافة.

أصيب حسن برصاص في ركبته وهو الخارج حديثاً من حداد على صديقه عارف، موظف الإسعاف الذي قتل منذ يومين بينما كان ذاهباً لتقديم العون للمصابين في غزَّة. توقفا في منتصف الطريق كي يلتقطا جسد رجل على وشك الموت، عندها انهمرت عليهما عشر طلقات من قنّاص إسرائيلي. أصابت رصاصة ركبة حسن وامتلأت سيارة الإسعاف بالفتحات. وصلت الخسائر في الأرواح حتى هذه اللحظة إلى ٦٨٨ قتيلاً إضافة إلى ٣٠٧٠ جريحاً، من بين القتلى ١٥٨ طفلاً عدا العدد غير المعلوم من المفقودين. البارحة فقط أحصينا ٨٣ قتيلاً، ثمانون منهم مدنيون. (لحسن الحظ) ما زال عدد القتلى بين الإسرائيليين ثابتاً على الرقم ٤.

في السفر باتجاه مشفى القدس حيث سأُمضي طيلة الليل في العمل في سيارة الإسعاف، تبعت وأنا في سيارة الإسعاف واحداً من آخر سائقي التاكسي الشجعان القليلين جداً الذين ما زالوا يعملون. كنا نمشي بشكل متعرّج لتفادي القنابل، وفي زاوية أحد الشوارع رأيت مجموعة من الزقاقيين الوسخي الهيئة في ثيابهم الرثة الذين يشبهون تماماً الأطفال ماسحي الأحذية في فيلم سيوشا (sciuscia) في فترة ما بعد الحرب الإيطالية. قذفوا الحجارة بواسطة مقاليعهم نحو السماء، على عدوّ بعيد لا يمكن الوصول إليه ويلهو بحياتهم. إنها استعارة

مجنونة يمكن استخدامها كلقطة فوتوغرافية حول اللامعقولية في هذا المكان وفي هذه اللحظة.

حافظوا على إنسانيتكم!

«أنا لن أغادر وطني!»

٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

معجون وفرشاة أسناني، شفرات ومعجون الحلاقة، الثياب التي أرتديها، دواء السعال الذي أتناوله للتخلص من سعالي المزمن، علب التبغ التي اشتريتها لأحمد، وبعض التبغ لغليوني. هاتفي النقال، وكمبيوتري المحمول الذي به وبشكل لا أستطيع مقاومته أقوم بطباعة بيانات شاهد العيان من الجحيم الذي يحيط بي. كل ما هو مطلوب من أجل الاستمرار في حياة معقولة وكريمة في غزَّة يأتي من مصر، ويصل إلى رفوف الحوانيت عبر الأنفاق. وهي ذاتها الأنفاق التي لم تتوقف إسرائيل عن قصفها بشكل عنيف طيلة الاثنتي عشرة ساعة الماضية مدمرةً آلاف المنازل في رفح قرب الحدود.

منذ عدة أشهر قمت بإصلاح ثلاث من أسناني النخرة، وفي نهاية العملية سألت طبيب الأسنان الفلسطيني الذي عالجني عن مصدر تجهيزات معالجة الأسنان التي يستخدمها، كالمخدّر والحقن والحشوات الخزفية وكل التجهيزات الأخرى. وبنظرة ماكرة على وجهه أومأ بيده: من تحت الأرض. ليس هنالك من شك أن المتفجرات والأسلحة قد تمّ تهريبها أيضاً عبر الأنفاق تحت رفح، وهي الطريقة ذاتها التي تستخدمها المقاومة لمحاولة احتواء التقدم المخيف للدبابات الإسرائيلية. لكن هذا لا شيء إذا ما قورن بالأطنان من البضائع الاستهلاكية التي تعبر إلى غزَّة المجوَّعة تحت هذا الحصار الإجرامي. من السهل الحصول عن طريق الإنترنيت على صور تظهر كيف أنه حتى الماشية تأتي من مصر

عبر الأنفاق. فالماعز الذي يعطى مسكّناً ويُوثَق بالحبال، والأبقار، يتم إنزالها إلى بئر مصري لتعود إلى الظهور في هذه الجهة كي تنتج الحليب والجبن واللحوم. حتى المشافي الرئيسة في القطاع يتمّ تزويد مخازنها خلسة بما تحتاجه عبر الحدود.

الأنفاق هي الوسيلة الوحيدة للفلسطينيين كي يستمروا على قيد الحياة بسبب الحصار. قبل وقوع هذه الحرب بزمن بعيد أصبح الحصار المسبب الرئيسي في وصول نسبة البطالة إلى ٦٠٪ مجبراً ٨٠٪ من العائلات على الاعتماد على المساعدات الإنسانية في معيشتهم.

وصف زملاؤنا في حركة التضامن الدولية في رفح ما شاهدوه من نزوح جماعي لآلاف السكان على أنه: قوافل اللاجئين اليائسين الذين يغادرون وطنهم إلى مصر محمّلين على عربات تجرّها البغال، أو خليط عربات. وهو سيناريو شوهد من قبل، مثله كمثل ظاهرة الديجا فو (Déjà vu)[٤]. في الأيام الأخيرة كانت المنشورات الورقية تنزل كالمطر من الطائرات ناشرة الذعر بين الفلسطينيين لدفعهم إلى إخلاء منازلهم. وحيث إن إسرائيل تنفّذ تهديداتها دائماً، ها هي القنابل تسقط الآن من طائراتها.

اليوم سيقضي مشردون جدد ليلتهم عند أقربائهم أو أصدقائهم أو معارفهم في غزَّة. فبعد مذبحة الليلة الماضية في جباليا لن يجرؤَ أحدٌ

(٤) كلمة بالفرنسية تعني (شوهد من قبل). وهي تسمية أول من أطلقها هو العالم الفرنسي إميل بويَرَك على ظاهرة ليس لها تفسير واضح حتى الآن تحدث للبعض ويشعرون أن الأحداث التي يعيشونها الآن كأنهم عاشوها وشعروا بها من قبل. وقد وردت في كتاب له بعنوان مستقبل العلوم النفسية صدر عام ١٨٧٦ (المترجم).

قطُّ على اللجوء إلى المدارس التابعة للأمم المتحدة. لكن عدداً لا يستهان به ليس لديه أحد أو مكان آمن للذهاب إليه، وسيمضون الليل متضرعين إلى الله ألّا يشملهم القصف، حيث ليس هنالك من أحد على وجه الكرة الأرضية لديه اهتمام بوجودهم. في هذا الوقت وصل عدد الضحايا إلى ٧٦٨ قتيلاً بينهم ٢١٩ طفلاً، ووصل عدد الجرحى إلى ٣١٢٩ جريحاً. أما عدد القتلى بين المدنيين الإسرائيليين فما زال، مشكوراً، محافظاً على ثباته عند الرقم ٤ فقط.

في حيّ الزيتون الواقع شرقي من مدينة غزَّة، لم تستطع سيارات الإسعاف الوصول إلى مكان وقوع إحدى المجازر إلا بعد انقضاء عدة ساعات على وقوعها، وبعد الحصول على إذن من القيادة العسكرية الإسرائيلية. وعند وصولهم أخيراً إلى هنالك قاموا بإخلاء سبع عشرة جثةً وعشرة جرحى، وجميعهم ينتمون إلى عائلة السموني. كانت عمليةُ إعدامٍ كاملةٍ. كان من الممكن ملاحظة الفتحات التي سبّبها الرصاص في جثث الأطفال الصغيرة علاوة على الجروح التي سببتها الشظايا.

كانت الليلتان الأخيرتان في مشافي غزَّة أكثر هدوءاً من المعتاد، كوننا لم نقدم المساعدة إلا للعشرات بدل المئات كالمعتاد. من الواضح أنه بعد المجزرة التي وقعت في مدرسة الفاخورة، تجاوز الجيش الإسرائيلي العدد اليومي للإصابات التي يحققها بين المدنيين، وذلك كتقدمة لحكومته العطشى للدماء نظراً لقرب حصول الانتخابات. لدينا إحساس بأن المشارح سوف تمتلئ إلى حد التخمة هذه الليلة أيضاً.

مطلقين صفارات سيارات الإسعاف، كنا نتابع نقل النساء الحوامل إلى المشفى حيث يلدن قبل الأوان. يبدو الأمر وكأن الطبيعة وغريزة البقاء تقنعان هؤلاء الأمهات الشجاعات بأن في أيديهن تحديد موعد

ولادة أطفالهن، للتعويض عن عدد القتلى الآخذ في التزايد. صرخات المواليد الجدد عندما يخرجون للحياة هي الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يطغى على أصوات انفجار القنابل للحظات معدودة.

طلبت زميلتنا ليلى في حركة التضامن الدولية من أطفال جيراننا كتابة انطباعاتهم عن المأساة الشنيعة التي نقاسيها. وفي ما يلي بعض المقتطفات من كلماتهم، حيث يمكن مشاهدة الرعب الذي تخلّفه الحرب من خلال نظرات أطفال غزَّة البريئة والنقية.

كتبت سوزان ابنة الخمسة عشر ربيعاً: «الحياة في غزَّة شديدة الصعوبة. في الواقع لا يمكننا وصف كل شيء. حيث لا نستطيع النوم ولا نستطيع الذهاب إلى المدرسة أو الدراسة. لدينا الكثير من المشاعر المختلطة، فأحياناً نشعر بالخوف والقلق بسبب قصف الطائرات والزوارق لنا ٢٤ ساعة في اليوم. وأحيانا نشعر بالملل بسبب انقطاع التيار الكهربائي في النهار، وفي الليل لا يتوفر التيار سوى لمدة أربع ساعات، ونستغل الوقت حينئذ لمشاهدة الأخبار على شاشة التلفاز، ونرى كيف يُجرَح الأطفال والأمهات ويموتون. ذلك أننا نعيش في ظلِّ الحصار والحرب».

وكتبت فاطمة ذات الثلاثة عشر ربيعاً: «كان هذا الأسبوع الأشد قساوة في حياتنا. ذهبنا إلى المدرسة في اليوم الأول من الامتحان النهائي للفصل الأول وبعدها بدأت التفجيرات، وقد قتل العديد من الطلاب وجرح آخرون، ومن المؤكد أن بعض الطلاب فقدوا أحد أقربائهم أو جيرانهم. لا يوجد كهرباء ولا طعام ولا حتى خبز. ماذا يمكننا أن نفعل؟ إنهم الإسرائيليون! جميع البشر في كل أنحاء العالم يحتفلون بالسنة الجديدة، أما نحن فنحتفل على طريقتنا».

سارة وعمرها ١١ ربيعاً كتبت: «غزَّة تعيش تحت الحصار، إنها أشبه بسجن كبير: لا ماء فيها ولا كهرباء. يشعر الناس بالخوف، إنهم لا ينامون ليلاً وكل يوم يقتل المزيد. قتل حتى الآن ٤٠٠ شخص وجرح أكثر من ٢٠٠٠. والتلاميذ يتقدمون الآن للامتحان النهائي للفصل الأول، لذلك قصفت اسرائيل وزارة التعليم والعديد من الوزارات الأخرى. الناس يسألون يومياً: «متى سينتهي هذا؟»، وهم ينتظرون مزيداً من القوارب التي تحمل ناشطين أمثال فيتوريو وليلى».

داروين وعمره ٨ سنوات: «أنا طفل فلسطيني: لا أريد أن أغادر وطني، لذلك سأحصل على بعض الفوائد، لأنني لا أريد أن أغادر وطني وإنني أسمع صوت الصواريخ، لذلك لا أريد أن أغادر وطني».

مريم عمرها ٤ سنوات. سألها أشقاؤها: ماذا تشعرين عندما تسمعين أصوات الصواريخ؟ فأجابت: قبل أن تركض لتحتمي خلف والدها «أنا خائفة».

الحزن يلفّ غموض غزَّة في الأيام العشرة الأخيرة. لا أستطيع أن أشحن بطارية هاتفي النقال وكمبيوتري المحمول إلا في المشافي. نشاهد التلفاز مع الأطباء وموظفي الإسعاف بينما نكون بانتظار نداء مستعجل. وننصت إلى أصوات لعلعة الرصاص في البعيد، وبعد دقائق قليلة تفيدنا قنوات التلفزة العربية بالمكان الدقيق الذي حصل فيه الانفجار. غالباً ما نشاهد أنفسنا على هذه القنوات ونحن نسحب الجثث من بين الأنقاض، وكأن رؤية هذه الجثث ذاتها على أرض الواقع لم تكن كافية لنا. في الليلة الماضية أدرت جهاز التلفاز على قناة إسرائيلية. كانوا يعرضون برنامجاً حول مهرجان للموسيقى التقليدية مع فتيات استعراض نحيلات، مختتمين البرنامج بعرض للألعاب النارية.

بعد ذلك عدنا إلى الرعب، ليس على شاشة التلفاز لكن في سيارات الإسعاف. للإسرائيليين الحق بالضحك والغناء حتى وهم يقترفون المجازر بحق جيرانهم الفلسطينيين. أما الفلسطينيون فلا يطلبون سوى أن يموتوا ميتة مختلفة عن هذا الموت، كتلك التي كانت في العصور السحيقة.

حافظو على إنسانيتكم!

قتل أبقراط

٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

ضربت فرقة إعدام في غزَّة بأبقراط عرض الحائط، مسدّدة بنادقها إليه ومطلقة عليه النار. إن التصريحات المنافية للعقل التي أدلى بها الناطق باسم الشرطة السرية الإسرائيلية حول إعطاء الجيش الضوء الأخضر لإطلاق النار على سيارات الإسعاف لأنها حسب زعمهم تنقل إرهابيين، لهي مثال على قيمة الحياة البشرية كما ينظر إليها الإسرائيليون هذه الأيام، حياة أعدائهم بالطبع. إن الأمر يستحق إعادة مطالعة ما هو منصوص عليه في قَسَم أبقراط الذي يقسم كل طبيب على الالتزام به قبل ممارسته مهنة الطب. الفقرات التالية تستحق الملاحظة بشكل خاص: «أتعهد بتكريس نفسي بكل جدية لخدمة الإنسانية. سوف أمارس مهنتي بكل ضمير وكرامة. سوف تكون صحة مريضي أول اهتماماتي. سوف أعالج جميع المرضى بكل حرص والتزام. لن أسمح لأي اعتبار أو دين أو عرق أو سياسة حزبية أو موقف اجتماعي بالتدخل بين واجبي ومريضي».

قتل تسعةُ أطباء وممرّضين متطوعين منذ بداية حملة القصف، وتم استهداف عشر سيارات إسعاف بالمدفعية الإسرائيلية. يرتجف الناجون من الخوف، لكنهم يرفضون التراجع ولو خطوة إلى الوراء. إن وميض ضوء سيارات الإسعاف القرمزي هو الضوء الوحيد في شوارع غزَّة المعتمة، عدا الوميض الذي يسبق الانفجارات. بالنسبة إلى الجرائم، أصدر بيير ويتاتش رئيس منظمة الصليب الأحمر في غزَّة التقرير الأحدث.

لم تستطع سيارات الإسعاف التابعة له الدخول إلى موقع مجزرة حي الزيتون شرقي مدينة غزَّة إلا بعد ٢٤ ساعة من الهجوم الإسرائيلي. وقد أفاد عمّال الإسعاف أنهم وجدوا أنفسهم وسط مشهد دموي مرعب: «في أحد المنازل وجدنا أربعة أطفال صغار بجانب جثة والدتهم. كانوا من الضعف بحيث لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم. كذلك وجدنا رجلاً في مقتبل العمر وكان أيضاً لا يقوى على النهوض من شدة ضعفه. كما وجدنا نحو عشرين جثة مسجّاة في فراشها». شهود العيان على هذه المجزرة الكبيرة وصفوا ما حصل بأن الجنود الإسرائيليين قاموا بعد وصولهم إلى الحي بتجميع عدد كبير من عائلة السموني في بناية واحدة ومضوا بعد ذلك إلى رمي القنابل عليها بشكل متكرر.

كنت وزملائي في حركة التضامن الدولية نجوبُ المكان في سيارات الإسعاف التابعة للصليب الأحمر لأيام ونعاني هجماتٍ عدة وفقدان صديقنا عرفة الذي أصيب بقذيفة هاون أطلقت من مدفع. علاوة على ذلك مضت عدة أيام على وجود ثلاثة أصدقاء من موظفي الإسعاف في الوقت الحاضر كمرضى في المشافي التي يعملون فيها. واجبنا نحن الذين في سيارات الإسعاف أن ننقذ الجرحى وليس أن ننقل الفدائيين. عندما نجد أحداً ما غارقاً في بركة من دمه لن يكون لدينا الوقت للتحقق من أوراقه الثبوتية أو أن نسأله إن كان من مؤيدي حماس أم فتح. كان غالبية الجرحى بحالة حرجة بحيث لا يستطيعون التكلم، حالهم كحال الموتى.

منذ عدة أيام، وبينما كنا ننقل أحد المصابين بجراح بليغة، قفز مصاب آخر جراحه طفيفة إلى داخل سيارة الإسعاف. فما كان منا إلا أن دفعناه على الفور إلى خارج السيارة لنوضح لمن كان يراقبنا من الأعلى

أننا لا نعمل كسيارة أجرة تنقل أعضاء حركة المقاومة حيث يشاؤون. في الليلة الماضية وفي مشفى القدس بمدينة غزَّة أدخلت مريم ذات السبعة عشر عاماً محمولة وهي في حالة مخاض متقدمة، والدها وأخت زوجها اللذين توفيا كانا قد أخرجا من المشفى عينه هذا الصباح، كلاهما كانا ضحية قصف عشوائي. وضعت مريم طفلاً رائعاً خلال الليل غير دارية بحقيقة أنه وبينما كانت مستلقية في غرفة الولادة وصل زوجها الشاب إلى المشرحة في الطابق الذي تحتها.

في نهاية الأمر، بدأت حتى الأمم المتحدة ترى أننا جميعنا في غزَّة موجودون على المركب ذاته، وأننا جميعاً أهداف متحركة للقّناصين. وصل عدد الخسائر حتى الآن إلى ٧٨٩ قتيلاً و٣٣٠٠ جريح (٤١٠ منهم في حالة حرجة)، ومن بين القتلى ٢٣٠ طفلاً، إضافة إلى عدد غير محدد من المفقودين. أما عدد القتلى في الجانب الإسرائيلي فما زال متوقفاً عند العدد ٤. في هذا الوقت أعلن جون جنغ مدير عمليات الأونروا (وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين) في غزَّة عن تعليق النشاطات الإنسانية للوكالة في قطاع غزَّة. التقيت بجنغ في مكتب راماتان الصحافي ورأيته يهزّ إصبعه بازدراء للإسرائيليين أمام الكاميرات. علقت الأمم المتحدة نشاطاتها في غزَّة بعد مقتل اثنين من العاملين لديها البارحة، وللسخرية، كان ذلك خلال فترة الساعات الثلاث المخصصة لوقف إطلاق النار الذي أعلنت عنه إسرائيل، وعادةً ما تفشل هي في التزامه. «المدنيون في غزَّة لديهم ثلاث ساعات يومياً بتصرفهم كي يبقوا على قيد الحياة، بينما لدى الإسرائيليين الواحد والعشرون ساعة المتبقية ليحاولوا فيها إبادتهم». ذلك ما سمعت جنغ يقوله بينما كان على بعد خطوتين مني.

ياسمين، زوجة احد الصحافيين الذين ينتظرون بالرتل على معبر إيريتس كتبت لي من القدس. لقد أبلغتني أن إسرائيل لن تسمح لهؤلاء الصحافيين بالعبور كي لا يقوم بتصوير أو وصف هذه الكارثة غير الطبيعية الهائلة التي نزلت علينا خلال الثلاثة عشر يوماً الأخيرة. وقالت: «ذهبت منذ يومين لإلقاء نظرة من الخارج على غزَّة. كان الصحافيون من كل أنحاء العالم متجمهرين فوق تلة رملية على بعد بضعة كيلومترات من الحدود. عدد لا يحصى من الكاميرات كان موجهاً نحونا. كانت الطائرات تحوم فوق الرؤوس بحيث كنت تسمعها لكنك لا تستطيع رؤيتها. كان الأمر أشبه بالهلوسة، أشبه بشيء كأنه في رأسك، حتى ترى الدخان الأسود يرتفع في أفق غزَّة. الهضبة ذاتها أصبحت أيضاً موقعاً سياحياً بالنسبة إلى الإسرائيليين الذين يقطنون في تلك المنطقة. جاؤوا بمناظيرهم الضخمة وكاميراتهم لمشاهدة عمليات القصف مباشرةً».

وبينما كنت أكتب بسرعة جنونية هذه القطعة من التقرير الإخباري، سقطت قنبلة على المبنى المجاور الذي أُوجد فيه الآن. اهتز زجاج النوافذ جراء الانفجار وآلمتني أذناي. نظرت عبر النافذة فرأيت المبنى الذي يحوي معظم وكالات الأنباء العربية وهو يُقصف. إنه واحد من أعلى مباني مدينة غزَّة ويدعى بناء الجوهرة. يتمركز فريق التصوير بشكل دائم في الطابق الأعلى وأستطيع أن أراهم جميعاً يلوّحون بأيديهم طالبين النجدة بينما لا تزال غيمة من الدخان الأسود تغطيهم.

في هذه البقعة من العالم يعتبر موظفو الإسعاف والصحافيون أكثر المهنيين بطولة. زرت البارحة تميم في مشفى الشفاء، إنه صحافي نجا من هجوم جوي. لقد شرح لي ما يظنه أن إسرائيل تتبنى التقنية الإرهابية ذاتها التي تتبناها منظمة القاعدة: قصف الأبنية والانتظار حتى

قدوم الصحافيين وسيارات الإسعاف ثم تعمل على إطلاق قنبلة أخرى لتنهي ما بدأته الأولى. في هذه الحالة يمكننا أن نتبين لماذا يوجد بين المصابين العديد من الصحافيين والمسعفين. وبينما هو يقول ذلك، أومأت الممرضات اللواتي كنّ حول سريره برؤوسهن تأييداً لكلامه. مبتسماً، أظهر لي تميم ما تبقّى من رجليه المقطوعتين. كان سعيداً لأنه ما زال على قيد الحياة كي يخبر القصة، في حين توفي زميله محمد والكاميرا في يده عندما وقع الانفجار الثاني القاتل. في أثناء ذلك سألت عن القنبلة التي سقطت على المبنى المجاور حيث جرح صحافيان فلسطينيان أحدهما يعمل لصالح التلفزيون الليبي والآخر لصالح تلفزيون دبي. يعتبر هذا تذكيراً قاسياً بأنه لا يجوز أن يتم تسجيل أو وصف هذه المجزرة بأي شكل من الأشكال. كل ما بقي لي هو الأمل بعدم وجود أحد من بين القادة العسكريين الإسرائيليين يقرأ جريدة إل مانيفستو أو من هو معتاد على زيارة مدوّنتي على شبكة الإنترنيت.

حافظوا على إنسانيتكم!

التدمير الشامل: العمل جارٍ على قدم وساق

١٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

أعطتنا بعض العائلات الفلسطينية عدداً من المنشورات الورقية التي سقطت من السماء في الأيام القليلة الماضية، إنها نوع من المجاملة أبدتها القوة الجوية الإسرائيلية بدلاً عن القنابل المألوفة. تقول القصاصة الأولى مترجمة من اللغة العربية:

> «إلى كل الناس الذين يعيشون في هذه المنطقة. بسبب النشاطات الإرهابية والإرهابيين المنحدرين من مناطقكم والذين يقومون بهجمات إرهابية ضد إسرائيل، فقد وجدت القوات الحربية الإسرائيلية نفسها مرغمة على القيام بعمل فوري في منطقتكم. وتبعاً لذلك فإننا نلحّ عليكم بأن تُخلوا المنطقة في الحال من أجل سلامتكم. التوقيع الجيش الإسرائيلي».

باختصار، يلصق الإسرائيليون على كل باب عبارة «العمل جارٍ على قدم وساق» وذلك قبل تهديم الأحياء كلها لصالح مؤسساتهم، وبذلك يحطمون الآمال في حياةٍ ما حاضراً ومستقبلاً. من الواضح أن هؤلاء الذين ليس لديهم مكان يهربون إليه قد كتب عليهم أن يُدفَنوا تحت أطنان من الأنقاض. لقد حذّرونا منذ فترة قصيرة أنهم ينوون إلقاء المزيد من المنشورات مهددين بأن «مرحلة جديدة من حرب إرهابية على وشك أن تبدأ». في الحقيقة بدا قادة الجيش الإسرائيلي مهذبين: طلبوا من سكان غزَّة أن يتعاونوا قبل أن يسحقوهم كالحشرات.

إذا لم تكن المنشورات مقنعة بشكل كافٍ، فالسبب يعود إلى أن القوات الجوية كانت تقرع على أسطح منازل غزَّة بلطف. إنه نوع جديد من التكتيك، فقد ألقيت قنابل أقل فاعلية بعض الشيء، مع ذلك فهي من القوة بحيث تستطيع تصديع الأسقف وإزالتها عن المنازل، مقنعةً ساكنيها «بلطف» بإخلائها. بعد دقيقتين أو ثلاث اندفعت الطائرات بالقرب منا من جديد ولم يتبقَّ شيء من المنازل. أين سيذهب القاطنون؟ ليس هنالك من ملجأ آمن على طول القطاع وعرضه، أما بالنسبة إليّ فقد أصبحت أخاف على حياتي حين أمر بالقرب من جامع أو مدرسة أكثر مما أخاف حين أقف أمام أي من المباني الحكومية التي لا تزال قائمة من دون مساس. في الليلة الماضية، وعلى بعد ٢٠ متراً من منزلي، دمرت طائرة حربية محطة إطفاء حريق. أما هذا الصباح فقد اكتشفت حفرةً عمقها بضعة أمتار على الطريق الممتد بالتوازي مع الميناء، كانت تبدو وكأن نيازكَ قد أُمْطِرَت من السماء وحفرتها على شاكلة ما يعرض في أغلب الأحيان في أفلام الخيال العلمي. إلا أن الفرق هنا هو أن التأثيرات الخاصة مؤلمة إلى درجة كبيرة.

عند زيارتك مشفى الشفاء المكتظ بالجرحى الذين ينتظرون المعالجة، يمكنك الالتقاء بطبيب لا يبدو عربياً، إنه مادس غيلبرت الطبيب النرويجي من منظمة نورواك غير الحكومية. غيلبرت طبيب مخدِّر قام بتأكيد شكوكنا باستخدام إسرائيل أسلحة محرمة دولياً ضد المدنيين في غزَّة: «يأتي إلينا العديد من الجرحى الذين بحاجة إلى بتر أكيد حيث تكون أرجلهم قد تحولت إلى عجينة، وذلك حسب اعتقادي

بتأثير قنابل الديم» (Dime)[٥]. ويحصل هذا بينما مفوّضة الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان نافي بيلاي تقول في تقريرها بأنه قد حصلت: «انتهاكات خطيرة جداً ربما وصلت إلى اعتبارها جرائم حرب».

آخر مثال على جريمة كهذه هو تلك الجريمة التي وقعت منذ ساعات قليلة في شرق جباليا حيث كانت عائلة عبد ربه بعد لحظة من إخلاء منزلها تُحضر بعض الحاجيات الغذائية من حانوت صغير، حين قصفت بقنبلة أدت على الفور إلى وفاة ثمانية من أفرادها، بالإضافة إلى جرح اثنين بجروح بالغة. كان لدى الناس الذين تكلمت إليهم في الطريق انطباعاً بأن اسرائيل تقتنص الفرص حتى عندما تكون القنابل تلقى من دون توقّف والمدفعية الميدانية تتقدم ببطء. لا يواجه الجنود الإسرائيليون مشكلة بكيفية تأمين حصص الطعام الفردية المخصصة للعسكريين ومراكمتها. على عكس أهل غزّة الذين لم يتبقَّ لديهم ولو كسرة خبز. لكن الخبّازين، وبعد أن نفد الطحين منهم، قاموا بخلط ما بقي لديهم بالطحين المخصص للحيوانات لإعادة بناء مخزونهم وصنعوا منه الكعك. إنه خبز بائت منذ أسبوع ومخضرٌّ بفعل العفن، تستطيع طبخه فوق نار قطعتين من الحطب ويمكنني أن أؤكد لك أنه حتى عند ذلك لا يكون طيب المذاق.

حمّلت إسرائيل على جميع مواقع الإنترنيت عشرات الأفلام

---

(٥) تتكون قنبلة الديم (Dime Dense Inert Metal Explosive) من مادة متفجّرة مبتكرة. وهي عبارة عن رأس حربي مكون من خليط الكربون والراتنج مدمجة والفولاذ والتنغستين. وقد صنعت هذه المتفجرة لقتال المدن واستهداف الفدائيين، وخصصت لضرب أهداف محددة وإحداث أكبر قدر ممكن من الضرر حيث تحدث موجة قاتلة في منطقة سقوطها.

الملتقطة وفق خاصية عين الطائر (التي تمكّن المشاهد من رؤية المدن من الأعلى - المترجم) عارضة فيها ما تزعمه دقة عمليات القصف ضد «الإرهابيين» أو ضد مستودعات أسلحة ومتفجرات العدو المفترضة. إن عدد الضحايا المدنيين المذهل كافٍ لدحض هذه الأفلام. أتعجب كيف يمكن إسرائيل أن تصف نفسها أنها متحضرة وديمقراطية في وقت لا يتوانى فيه جيشها، في إطار سعيه لقتل وتهجير عدوّه، عن ضرب وتهديم بناءٍ مكتظٍ بالسكان، دافناً العشرات من الضحايا الأبرياء أحياءً كجزء من حملته. إن مَثَل ذلك كمثل الجيش الإيطالي إذا ما حاول القبض على مجرم خطير من المافيا، فإنه يعمد إلى قصف مركز مدينة بالميرو بشكل عنيف.

وبينما أنا جالسٌ هنا أكتب هذا التقرير، يكون عدد القتلى الفلسطينيين قد وصل إلى ٨٢١ قتيلاً، بينهم ٩٣ امرأة و٢٣٥ طفلاً. كما قتل ١٢ مسعفاً كانوا على رأس عملهم يقومون بواجبهم، وتوفي ثلاثة صحافيين وكاميراتهم ملفوفة حول رقابهم. أما الجرحى فقد وصل عددهم إلى ٣٣٥٠ جريحاً، أكثر من نصفهم تحت سن ١٨ عاماً. ووفق «مركز الميزان لحقوق الإنسان» في جباليا المشهود له بصدقيته، فإن ٨٥٪ من الضحايا المدنيين الفلسطينيين قتلوا بمذابح في الأسبوعين الأخيرين. ومع ذلك فقد بقي عدد القتلى بين الإسرائيليين متوقفاً عند الرقم ٤.

إذا لم تستطع الأمم المتحدة حماية السكان المدنيين الفلسطينيين من الانتهاكات الإسرائيلية الخطيرة لمواثيقها الدولية الخاصة بحقوق الإنسان، فإن أصدقائي في حركة غزَّة الحرة سوف يوجّهون إليها طلقة،

إذ إنهم جاهزون، كما كانوا دائماً، للإبحار إلى غزَّة خلال بضعة أيام. وسيكون من بين من سيأتي أطباء وممرضون ونشطاء حقوق إنسان يَعتبرون أنه من واجبهم الشخصي فعل أي شيء يقدرون عليه في المجال الإنساني لتقديم بعض إجراءات الحماية. لقد حاولوا من قبل القدوم آملين الوصول إلى هنا في ٣١ كانون الأول/ ديسمبر على متن قارب الكرامة. لكن البحرية الإسرائيلية قصفت مركبنا في المياه الدولية مخلّفة فيه أضراراً، في محاولة منهم لإغراقه، وتحدثوا في وقت لاحق عن الأمر على أنه كان حادثاً. سوف أنتظر أصدقاءنا مع حمولتهم من المساعدات الإنسانية بين أنقاض ما بقي من المرفأ. متمنياً ألا يقع (حادثٌ) مماثلٌ بعيداً عن الشاطئ هذه المرة.

المنشور الثاني الذي ألقته الطائرات والذي قمنا بترجمته هو عبارة عن صراخ:

«يا أهالي غزَّة كونوا مسؤولين عن مصيركم! يمثل الإرهابيون في غزَّة وأولئك الذين يطلقون الصواريخ ضد إسرائيل تهديداً على حياتكم وحياة عائلاتكم. إذا أردتم أن تساعدوا عائلاتكم وإخوتكم في غزَّة، كل ما عليكم القيام به هو الاتصال بالرقم الوارد أدناه وإعطاؤنا معلومات عن أماكن وجود هؤلاء المسؤولين عن إطلاق الصواريخ. لقد حوّلتكم الميليشيا الإرهابية إلى أولى ضحايا أعمالها. إن الوقاية من المزيد من الأعمال الوحشية التي ارتكبت هي الآن مسؤوليتكم! لا تترددوا! نضمن لكم التكتم الكامل على أسمائكم. يمكنكم الاتصال بنا على الرقم التالي:... كما يمكنكم الكتابة لنا على عنوان البريد الإلكتروني التالي:... لتزويدنا بما يتوفر لديكم من معلومات عن النشاطات الإرهابية».

كتب لي العديد من الإيطاليين معبّرين عن إحباطهم بسبب عدم قدرتهم على فعل أي شيء ضد المجزرة التي تحدث حالياً. إنني أحثكم على الاستمرار في إظهار امتعاضكم ودعمكم لحقوق الإنسان. وإذا كان لديكم دقائق من الوقت وبطاقة اتصال دولية، فإن التفاصيل الواردة في المنشور يمكن أن تكون مساعدة لكم في الاتصال بتلك الأرقام والتعبير عن ازدرائكم لأولئك الذين يقامرون بسخرية بحياة مليون ونصف المليون من البشر عن طريق الجو والبحر والبر. لن يكون هنالك أفضل من هذه الطريقة لاستهلاك بطاقة الاتصال. هؤلاء الـ ٢٣٥ طفلاً المذبوحون يطلبون منكم ذلك.

حافظوا على إنسانيتكم!

العُقبان ومنتهزو الفرص

١٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

ما زلنا نحاول أن نخلق طرقاً للخلاص عبر البحر وأن نوجد ممراً خارج هذه الأرض المعذبة التي أصبحت الآن مصادرة وحبيسة. هذه الأرض المغتصبة في كل بوصة منها والتي تحولت إلى مقبرة للجثث التي حرمت من الرقاد بسلام. الآن ومنذ عدة أيام أصبحت حتى الجنازات أهدافاً للطائرات الإسرائيلية وكأن الفلسطينيين المقتولين يستحقون عقاباً إضافياً وهم موتى أيضاً.

إذا كان الممر الآمن ينازع كي يشق طريقه ويساعد أناساً في رمقهم الأخير، فإن مركب (روح الإنسانية) وهو واحد من أربعة مراكب تابعة لحركة غزَّة الحرة سيحاول أن يكون موجوداً من أجل نقلهم. لقد أبحر اليوم من لارنكا في قبرص وسوف يجلب معه أطناناً من المساعدات الطبية التي ستفرغ في ميناء غزَّة يصاحبه أربعون طبيباً وممرضاً وصحافيون وأعضاء في البرلمان الأوروبي ونشطاء حقوق إنسان ممثلين لـ١٧ بلداً مختلفاً. إن كائنات بشرية من أمثالي وأمثال العديد ممن يعبّرون عن سخطهم، هم على استعداد للمخاطرة بحياتهم بدل أن يذرعوا غرف جلوسهم بسلبية جيئة وذهاباً بينما يشاهدون نشرات الأخبار التي لا تظهر سوى جزءٍ يسيرٍ مما تفعله المذبحة التي وقعت على رؤوسنا هنا.

في التاسع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر أصيب أصدقائي

على متن قارب الكرامة الذي هاجمته البحرية الإسرائيلية محاولةً إغراقهم. توجَّب عليهم إطلاق نداء استغاثة والهروب إلى لبنان بالمحرك المعطوب الذي عانى فشلَ إقلاعٍ إضافة إلى التسرب في هيكله. في تلك الحادثة كانت الصدفة المحضة هي التي منعت إصابة أحدٍ على المركب إصابة بالغة، لذلك نأمل أن يتم إنقاذ (حقوق الإنسان) غداً إضافة إلى حياة الناشطين. هنالك كوارث مخيفة في هذا العالم كالزلازل والأعاصير والظواهر الطبيعية المحتمة. لكن غزَّة تعاني كارثة ليست بفعل الطبيعة، إنها كارثة إنسانية أطالت إسرائيل استمرارها مسببة أضراراً لشعبٍ مدفوعٍ منذ مدة طويلة نحو الفاقة والاستسلام. الغزيون شعب يائس يفتقر إلى الخبز والحليب لإطعام أولاده. أما عيونهم فلن يكون بإمكانها أن تذرف الدموع بعد الآن عند الحداد لأنه فُرِض عليها حميةٌ صارمة. لا يمكن أن يستمر عالمنا بتجاهل هذه المأساة، أما إذا استمر في تجاهلها فنحن لا نريد أي جزء منه. إننا نتضرع كل يوم للّذي في السماء فوقنا لإيقاف هذه الإبادة الجماعية، لكن ما سنطلبه منه غداً هو أن يصل مركبنا الصغير إلى شاطئ غزَّة بسلام مع حمولته وحالة التعاطف والشفقة التي يحملها طاقمه. كذلك نطلب أن يحصل الفلسطينيون على الحقوق ذاتها التي يتمتع بها الإسرائيليون، أو أي شعب آخر على هذه الكرة الأرضية.

يمكن البحر أن يكون مرساة الأمل أو جزءاً من مخطط عمل للتدمير. فتبعاً لوكالة (معاً) للأنباء، ووكالة رويترز اللتين ترددان خطبهما، فإن الولايات المتحدة الأمريكية على وشك أن تشحن حمولة ٣٠٠ طن من الأسلحة إلى إسرائيل بسفينة شحن تبحر من اليونان. أسلحة وكميات ضخمة من المتفجرات وصمامات التفجير، هي كل ما تحتاج

إسرائيل من أجل تهديم آلاف المنازل فوق ساكنيها. هنالك ١٢٠,٠٠٠ مشرد تم تهجيرهم من غزَّة إلى جباليا، لكن الأكثرية، ومن ضمنهم العديد من أصدقائي، لا يملكون نقوداً، وليس لديهم مكان يهربون إليه. ومنذ ستة عشر يوماً لم يتوقف الصحافيون والأطباء وحفّارو القبور عن عملهم، فأصبحوا أكثر المهنيين انشغالاً في غزَّة. إن العقبان التي تحوم في السماء وتتبع الطائرات التي ترمي قنابلها تثير مزيداً من الكراهية لدى الفلسطينيين وخاصة تجاه أولئك الذين يجلسون حيث كان ياسر عرفات (١٩٢٩-٢٠٠٤) رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية معتاداً أن يجلس. إنهم الآن يتلهفون للمجيء والسيطرة على العرش المتربع فوق رماد غزَّة.

وصل عدد الضحايا حتى الآن إلى ٩٢٣ قتيلاً و٤١٥٠ جريحاً بما فيهم ٢٥٥ طفلاً فلسطينياً ذبحوا بشكل فظيع. ولا يزال عدد القتلى بين الإسرائيليين متوقفاً عند العدد ٤. ظهرت إشاعات مفادها أن رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت(٦) قد أبلغ حكومته أن وصول عدد الضحايا بين المدنيين إلى ١٠٠٠ قتيل هو الذي سيقرر الحد الذي بعده سيتم وقف هذه الهجمات الوحشية وقتل الأطفال. إن هذا لأمر يشبه إلى حدّ ما الذي حصل في أسواق فوكسيريا في بالميرو، حيث إن ربع لحم البقر يعلّق في الخارج أمام الزبائن كي يصفى منه الدم وتقوم أنت بالمساومة على ثمن الكيلو الواحد.

عدد قليل من الفلسطينيين غير متفقين الآن مع ظهور إسماعيل

---

(٦) وريث أولمرت في رئاسة الحكومة هو بنيامين نتنياهو الذي تعلّم مهامه في ٣١ آذار/ ماس ٢٠٠٩.

هنية[٧] على الشاشة الصغيرة هنا في قطاع غزَّة. لا يمكنك التحدث حول وقف إطلاق النار من دون التأسيس في الوقت عينه لرفع الحصار. إن الاستمرار في فرض الحصار على غزَّة، التي تحولت الآن إلى كومة من الأنقاض، وعدم السماح بوصول المؤن والأدوية ومنع الجرحى والمرضى من المغادرة هو أمر مساوٍ للحكم عليهم بإطالة أمد عذابهم. كانت هذه باختصار الكلمات التي قالها قائد حركة حماس ووجّهها من غرفة محصّنة تحت الأرض، يعلم الله وحده موقعها. لقد وجدت هذه الكلمات صداها عند الرأي العام في غزَّة. إنه خطاب قائد كان يمكنه أن يهرب ويلجأ إلى مكان آخر. لكنه على العكس من ذلك آثر البقاء مواجهاً خطر سقوط قنبلة على رأسه مثله مثل الآخرين جميعاً.

تمت مقاطعتي بينما كنت أكتب هذه القطعة بمكالمة هاتفية مرعبة معتادة، تأمرنا بمغادرة المبنى قبل قصفه. في الوقت الحالي أوجَدُ في بناء تعمل فيه وكالات الأنباء ووسائل الإعلام العالمية الرئيسة ومن بينها الجزيرة وراماتان ورويترز. أُجبرنا على فصل أجهزتنا الكومبيوترية المحمولة والاندفاع إلى الدرج والتجمع في الشارع حيث حدقنا شاخصين بأنظارنا نحو السماء محاولين التحقق أين سيضرب برق التدمير هذه المرة، ولن يكون هنالك أية كاميرا أو مراسلين لتوثيق المذبحة التي سترتكب بحق المدنيين هذه الليلة، لأنه لدينا إحساسٌ بأن عدد القتلى بين المدنيين سيكون أكثر من المعتاد. وبينما ما زلت واقفاً

(٧) إسماعيل هنية (ولد عام ١٩٦٣)، هو الزعيم السياسي لحركة حماس الذي أصبح أحد رئيسي الحكومة في السلطة الوطنية الفلسطينية عام ٢٠٠٦. كان الرئيس محمود عباس عزله عام ٢٠٠٧ الأمر الذي كان سبباً لنزاع سياسي وقانوني على الرغم من استمراره بممارسة مهامه في غزَّة بقوة الأمر الواقع.

في الطريق حدقت بألبيرتو مومئاً إليه. اقترب مني، فهمست له سائلاً إن كان يظن بأن من المعقول أن تكون مكالمات التهديد قد وجهت إلينا بشكل خاص بعد اكتشاف ذلك الموقع الأمريكي على شبكة الإنترنت الذي يصنّفنا كأهداف، وما جاء على ذلك الموقع هو التالي:

«إنذار بأن الجيش الإسرائيلي يستهدف حركة التضامن الدولية

الرقم التالي للاتصال في حال استطعت أن تحدد أماكن وجود عناصر حماس وأعضاء حركة التضامن الدولية التابعين لها. يمكنك الاتصال من الولايات المتحدة على الرقم التالي:.....، أما من البلدان الأخرى فيمكنكم الاتصال على الرقم التالي:..... ساعدونا على تحييد حركة التضامن الدولية التي من المؤكد أنها قد أصبحت جزءاً من حركة حماس منذ اندلاع الحرب».

١- الهدف الأول للقوات الجوية الإسرائيلية والقوات البرية الأمريكية من حركة التضامن الدولية هو:

فيتوريو أريغوني (الصورة الظاهرة أدناه) يوجد الآن في غزّة ويساعد حماس.

تم نسخ هذه الوثيقة من موقع (stoptheism.com). لا تزعجوا أنفسكم بزيارة هذا الموقع أو إظهار رابط له على مواقعكم الإلكترونية. إنها قضية اجتماعية يجب تمريرها إلى الأجيال القادمة لدراستها. في تحليله الأقرب للحاضر سوف يصدر المستقبل حكمه غير القابل للاستئناف: كم هو مقدار الحقد الذي كان يحمله أولئك الخالون من المشاعر؟ فلتوجهوا حقدكم ضد أي شيء يمكن أن يموّل جميع الجيوش، ولنجعل من هذا الحقد ذلك الشعور الذي يمكن أن يجمع جماهير الشعوب بعضها مع بعض. لا يوجد داعٍ لدى أعدائي ولدى

هؤلاء الذين يتمنون استشهادي بأن يتصلوا على ذلك الرقم. فالجيش الإسرائيلي يعلم بالضبط أين يمكنه إيجادي، سأكون على متن إحدى سيارات الإسعاف التابعة لمشفى القدس.

حافظوا على إنسانيتكم!

الأطفال أقلّ من الله

١٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

الأطفال أقل من الله[٨]، إنني أشير إلى أولئك الذين كانت أحضان أمهاتهم وآبائهم هي مأواهم، أما الآن فقد تحطّمت هذه الأحضان إلى الأبد بفعل الصاعقة النازلة من السماء. وما زال قتلهم يُتخذ كتعويض لذلك الحقد الذي يتوارثه القتلة من جيل إلى آخر، وظلّ يلاحقهم، بالرغم من أنه لا ذنب لهم. يبدو الجنود الذين يحملون نجمة داوود مرتاحين للأدوار التي يؤدونها بحصيلة ذبحهم ٢٥٣ طفلاً فلسطينياً حتى الآن، مثلهم مثل العديد من ناطقي العبرية المعاصرين. إنه رعب بلا نهاية لم يسبق أن أجبر أي جندي أو ضابط إسرائيلي أو أية حكومة إسرائيلية على الاعتراف به. ولو أنه تم تجنّب قتل هؤلاء الضحايا البريئين لساعات قليلة، فلربما لم يكن من الضروري تجنّب تدمير تلك الأبنية والحدائق التي تستخدم كستارة يعلّقون عليها ألعابهم وأحلامهم وطموحاتهم وخيالاتهم لما سيكونون عندما يكبرون. أما الأماكن التي خصصت للتعويض عن فقدانهم أمهاتهم وآبائهم، ولا سيما المياتم، فقد أصبحت المكان المفضّل لتعشيش فصيلة من الطيور الآلية الإسرائيلية. إنها المكان الذي تذهب إليه الطائرات المقاتلة لتضع قنابلها فيه. كتب

---

(٨) العنوان مستوحى من مسرحية بالعنوان نفسه للكاتب الأميركي مارك ميدوف صدرت عام ١٩٨٠، وتتمحور حول التضارب بين العلاقة المهنية والعاطفية التي تجمع طالبة صماء ومدرّسها. والمسرحية المخصصة للمتفرجين الصمّ قدمت على المسارح الأميركية ٨٨٧ مرة (المترجم).

لي زميل في حركة التضامن الدولية من رفح يقول:

«قامت طائرات الإف ١٦ يوم الأحد في الحادي عشر من كانون الثاني / يناير في حوالى الساعة الثالثة فجراً بقصف ميتم تابع لمؤسسة دار الفضيلة الذي يضم مدرسة ومعهداً ومركزاً لتعليم الكمبيوتر وجامعاً في شارع طه حسين في حي خربة العدس شمال شرقي رفح. وقد تضررت أجزاء من المباني بشكل كبير. وكانت المدرسة تضم ٥٠٠ طفل يتيم».

لا يزال هذا الجهاد الإسرائيلي الشخصي ضد الأماكن الإسلامية المقدسة على طول القطاع جارياً على قدم وساق بمباركة من المجتمع الدولي الذي يمتنع عن إبداء أقلّ قدر من الاحتجاج. فبالإضافة إلى مسجد خربة العدس تم تسوية ٢٠ مسجداً بالأرض حتى الآن. شاكرين العناية الإلهية أنه لحد الآن لم يلمس صاروخ القسام أي كنيس يهودي، وإلا فمن المؤكد أننا كنا قد سمعنا صرخات التنديد تصمّ الآذان في كل بقاع العالم. لكن لم يكن مفاجئاً لنا ألّا يكلف أحدٌ نفسه عناء الاحتجاج ضد هذه الحملة الشعواء على الإسلام. لا بد أن الله يدفع ضريبة حين يتلقى الصلوات من الفلسطينيين.

من بين الضحايا الـ ٩٥٠ هنالك ٨٥٪ مدنيون، في وقت تتقدم فيه آلة القتل الإسرائيلية الجهنمية ببطء مُحكمة السيطرة على كل غزَّة، مدمّرةً المنازل والمدارس والجامعات والمشافي من دون أية إشارة من المجتمع الدولي حول رغبته بمقاطعتها بسبب هذه الأعمال. إنه الآن دورنا نحن، مواطني التضامن، الذين من دون مواطنة (إن لم يكن من دون أي شعور بالانتماء إلى الأسرة الدولية) للوقوف في وجه هذه الآلة الجهنمية.

قابلت مؤخراً الدكتور حيدر عيد، الأستاذ في جامعة القدس، في مدينة غزَّة. إنه مثقف يساري قاسٍ كالمسمار، وفي الوقت عينه طيب المعشر وعاطفي وكريم، ومن الصنف المنقرض تماماً هذه الأيام في إيطاليا. وإذا ما كانت هنالك إمكانية لوجود من يشبهه هناك، فمن المحتمل أن صنفهم مسجون في سرداب ما تحت الأرض بعد أن أزيل من الذاكرة الجمعية. ومن المستحيل تبنّي نموذجه من قبل الاتجاه التحالفي حيث يمشي ما بعد الفاشيين يداً بيد مع ما بعد الاشتراكيين، مرددين جماعياً تلك اللازمة التي يدافعون فيها عن أية مذبحة تقترفها إسرائيل. وصادف أن حيدر هو الناطق الرسمي باسم الحملة الفلسطينية للمقاطعة الأكاديمية والثقافية لإسرائيل (website: http://www.pacbi.org) واللجنة الوطنية لحملة المقاطعة وفرض العقوبات وسحب الاستثمارات (http://bdsmovement.net/).

التاريخ معلّم لكن ليس لديه طلاب. في الوقت الحاضر يبدو كل من نيلسون مانديلا والماهاتما غاندي غير قادرَيْن على تقديم دروس علاجية. فدرس التاريخ الذي قدّمه نموذج جنوب إفريقيا يمكن أن يبين لنا، مشكوراً، الطريق باتجاه إجبار إسرائيل الفاشية والاستعمارية على المساومة. وكان الامتناع عن مقاطعة نظام الفصل العنصري أشبه ما يكون بفعل التواطؤ معه. ما الذي يمكن أن يكون قد تغير اليوم؟ فمثلي أنا، لا تعتقد الأغلبية العظمى من الشعب الفلسطيني بأن الرد المناسب على الاحتلال الإسرائيلي والمذبحة الجارية الآن هو العمليات الانتحارية مثل (الكاميكاز) أو إطلاق الصواريخ على مستوطنة سديروت. إن مقاطعة سلمية وغير عنفية هي الرد الإنساني الأكثر قبولاً على صراع، بإفساده هذه المقاطعة يكون قد ساهم بتحويل كل بادرة إلى

شيء غير إنساني. إنه السلاح الأنجع في ترسانتنا اللاعنفية، كما ذكّرتنا نعومي كلاين في مقالتها في الغارديان البريطانية[٩]. قرر حيدر النظر إلى الجانب المضيء بالرغم من مستنقع الدماء الذي نغوص فيه. وكما شعر العالم بأن الوقت قد حان لقول كلمة (كفى!) بعد مذبحة شاربفيل في ٢١ آذار/مارس عام ١٩٦٠ عندما تم تقطيع أجساد ثلاثة مواطنين إلى أجزاء بإرادة النظام البربري في جنوب إفريقيا، فإن المذبحة الجارية حالياً والتي لا تقارن بشيء، ونجم عنها قتل ١٠٠٠ مدني فلسطيني يمكنها أن تنفخ الروح في حملة قوية مشابهة للحملة ضد نظام الفصل العنصري لمعاقبة إسرائيل على جرائمها.

كما إن حيدر يدعم فكرة إقامة دولة إسرائيلية فلسطينية علمانية وديمقراطية متعددة الأديان، حيث قال: ليس هنالك حل واقعي غير هذا للخروج من الصراع القائم. وبحميمية أكثر، حدثني عن النكبة التي لم يعاصرها حيث ولد بعدها بعدة سنوات، فكانت بحديثه وكأنها قد عادت إلى الحياة عبر القصص التي ورثها من عائلته. وكطفل عاش بعد هذه المأساة تحدث من دون أي تكلف بالكلمات. وصلت النكبة إليه ككابوس تغذّي عليه اللاشعور الجمعي لآلاف الفلسطينيين. لقد عاد هذا الكابوس إلى الحياة مرة أخرى قارعاً السقوف في يوم ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨. ولم يزل مستمراً يرمي بلاءه في الليالي التي لم تشهد نوماً منذ ذلك الحين. شجعني حيدر على البوح بهذا، لذلك أدوّن في مفكرتي البالية نداءه بألّا أشتري بعد الآن أي شيء صنع في إسرائيل. ويمكننا اكتشاف المواد الإسرائيلية الصنع الموجودة على رفوف الحوانيت عن طريق الباركود الخاص بها الذي يبدأ بالأرقام

(٩) «كفى! حان وقت المقاطعة» الغارديان، ١٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩.

الثلاثة ٧٢٩.

قُم بوضع قائمة كاملة وألصقها على باب ثلاجتك لحفظها من الضياع إلى حين القيام برحلة التبضع التالية. وقال حيدر: «إذا اشتريت ولو كأس ماء مستورد من إسرائيل، ربما تكون قد موّلت شراء إحدى الرصاصات التي ستجد لها مأوى في جسد أحد أبنائنا».

رأت القوة الدافعة من أجل المقاطعة النورَ في فلسطين عام ٢٠٠٥ وهي تخطو الآن خطوات عملاقة إلى الأمام وتنتشر بين ملايين المستهلكين حول العالم. ويعتبر الرئيس الفنزويلي هوغو تشافيز الذي طرد السفير الإسرائيلي وقطع كل العلاقات مع الدولة التي تخنقنا حالياً، مثالاً يمكن أن يحتذي به جميع سياسيينا.

صرّح قادة النضال ضد نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، نلسون مانديلا وروني كاسريلز وديسموند توتو، أن الاضطهاد الإسرائيلي للفلسطينيين يعتبر أبغض من ذلك الذي كان يمارس ضد المواطنين السود في جنوب إفريقيا. كما انضم بعض اليهود لحملة المقاطعة حيث وصل عددهم حتى الآن إلى ٥٠٠ عضوٍ من بينهم إيلان بابيه ونيتا غولان من أحفاد الناجين من المحرقة ضد اليهود الذين رفعوا احتجاجهم وشعاره (Never Again: أبداً لن تكون مرة أخرى!). كما حثنا الشاعر الإسرائيلي أهارون شبتاي على التظاهر قائلاً:

> «إن آمالي تقع على دعم الأوروبيين، آملاً أن أحفاد فولتير وروسو يمكن أن يساعدوا إسرائيل، لأن إسرائيل لن تنهي احتلالها إلى أن تقول أوروبا (كفى!). لا يمكن أن يغيّر الوضع الحالي ويجلب لنا السلام شيء، سوى الضغط الذي تمارسه الأمم المتحضرة والديمقراطية. ففي الحالة هذه، والجيش هو المسؤول عن كل

شـيء، لا يمكن أن يكون هنالـك تغيير من الداخل. على أوروبا أن ترفض استمرار التعاون مع إسرائيل. لذلك يجب أن يصبح الرقم ٧٢٩ هو محرقتنا: أبداً لن تكون مرة أخرى!».

حافظوا على إنسانيتكم!

دوائر جحيم جباليا[10]

١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

لم يكن بإمكان الشاعر دانتي أليغيري تخيّل دوائر جحيمية كتلك التي تحدث في ردهات مشافي جباليا وكأنّها حلّت عليها لعنة ما. كما إن قوانين العدالة الإلهية قد أشاحت بوجهها عن هذا المكان بحيث إنه: بقدر ما تكون الضحية بريئة تقلّ فرص تجنّب استشهادها عن طريق القصف. وفي مشفى كمال عدوان ومشفى القدس يبقى بلاط قسم الإسعاف الأولي الخزفي بمنتهى النظافة لأن عمّال التنظيف يواظبون على تنظيف الدم الذي يقطر بغزارة من النقالات التي تجلب بشكل دائم لنقل الجثث المذبوحة. كان إياد مطوّق يمشي في الشارع عندما مزقت قنبلة بناءً ليس بعيداً عنه. هُرع هو وبعض المارّة لمحاولة المساعدة عندما أطلقت القوات الإسرائيلية قنبلة أخرى على المبنى ذاته. لقد قتلت أباً لتسعة أطفال وأخوين وأحد المارة الذين أسرعوا لتقديم المساعدة. يمكن أن تحكى القصة عينها عشرات ومئات المرات. لقد نُفّذت التقنية الإرهابية التامة بحذافيرها من قبل الجيش الإسرائيلي. ما تفعله هو أن تقوم بضرب قنبلة ثم تنتظر حتى وصول المسعفين فتقوم بإلقاء قنبلة

(١٠) العنوان مقتبس من الكوميديا الإلهية لدانتي. وتقوم فكرة الدوائر على أن هناك مستويات مختلفة للعقاب في الجحيم تتجلى في تسع دوائر، قاد الشاعر الروماني فيرجيل الشاعر دانتي إليها. والدوائر مركزة في الوسط وهي تمثل ازدياداً تدريجياً لمقدار الشر، وتتجمع في مركز الأرض، وتخصص كل دائرة لخطاة يعاقَبون بطريقة تناسب جرائمهم (المترجم).

أخرى على الجرحى والناس الذين هُرعوا لتقديم المساعدة. في نظر إياد، تعتبر القنابل أمريكية الصنع، لكنها أيضاً تحمل ختم حسني مبارك، الدكتاتور المصري الذي ينافس إيهود أولمرت هنا في غزَّة عندما يتعلق الأمر بإثارة الاستياء. خلف سرير إياد كان يستلقي رجل مسنّ محدّقاً بالسقف ويداه ملفوفتان باللاصق. علمت أنه قد فقد كل شيء، عائلته ومنزله. أخذ يحدّق بشقوق اللاصق المتدلي وكأنه يَنشُد جواباً للدمار المطلق الذي أصاب وجوده. اسمه خالد، عمل في إسرائيل لخمسة وعشرين عاماً قبل الانتفاضة الأولى. وعرفاناً لذلك، حرمته إسرائيل من راتب تقاعدي وكل ما عوّضته به هو سلسلة من الصواريخ من الأرض والجو على منزله، إنه يعاني الآن من الشظايا التي أصابته في كل أنحاء جسده. سألته إلى أين ينوي الذهاب بعد خروجه من المشفى. أجاب بأنه سوف ينضم إلى عائلته.. في الشوارع.

على عكس عائلة خالد، هنالك الكثير من الناس الذين لا يعلمون أين يجدون مأوىً. الأكثر حظاً منهم عرض عليهم أقرباؤهم وأصدقاؤهم استضافتهم لديهم، لكن هل يمكنك القول بأن وجود ١٠٠ شخص محشورين في شقتين كل منهما مكونة من ثلاث غرف هو في الحقيقة حياة؟ لقد ألقيت قنبلتان على منزل شخص يدعى احمد جابر، لذلك قررت عائلته الهرب، لأن منهم من لن يكون محظوظاً في المرة الثالثة. جاء الانفجار الثالث ودفن تحت ركام المنزل سبعة من أقربائه بمن فيهم طفلان في سن التاسعة إضافة إلى أطفال جاره. أحمد قال:

«لقد جعلونا نعود للوراء في الزمن إلى عام ١٩٤٨. هذا عقابهم لنا بسبب ارتباطنا بوطننا. يمكنهم أن يفصلوا ذراعيَّ وساقيَّ عن جسدي لكنهم لن يجبروني على ترك أرضي».

انتحى بي أحد الأطباء جانباً وأبلغني بأن ابنة أحمد، البالغة من العمر سبعة أعوام، أو ما تبقّى منها قد أحضر الآن إلى المشفى في علبة كرتون. لم يطاوعهم قلبهم بإبلاغه كي لا يجعلوا وضعه الصحي غير المستقر يسوء أكثر. في المساء أخذوا جهاز الهاتف من إياد لمنعه من تلقّي المزيد من الأخبار السيئة. فقد ضربت قذيفة دبابة منزل أخته فاصلة رأسها عن جسدها في إطار تلك العملية.

في النهاية لم يصل قارب حركة غزَّة حرة إلى ميناء غزَّة، لأنه وعلى بعد ١٠٠ ميل من وجهتهم المقررة اعترضتهم أربعة قوارب حربية إسرائيلية في المياه الدولية، وكانت على أهبة الاستعداد لإطلاق النار على شحنتهم المكونة من أطباء وممرضات وناشطي حقوق إنسان. يجب ألا يجرؤ أحد على إعاقة المذبحة القائمة ضد المدنيين والتي بدأت منذ ثلاثة أسابيع ووصلت إلى أوجها الآن. تحدّث شاهد عيان عن وجود عدد كبير من الجثث المتفسخة على الطرقات في شرق جباليا وقد التهمت الكلاب لحمها المتعفن. ويوجد هنالك مئات من الأشخاص غير القادرين على الخروج إلى أي مكان رغم وجود العديد من الجرحى بينهم. كما لا تستطيع سيارات الإسعاف الدخول إلى المكان بسبب القنّاصين المنتشرين على الأسطح والتوّاقين إلى إطلاق النار. لقد سئم الفلسطينيون الهوان وسط هذه اللامبالاة من الجميع حتى إن العديد منهم يتّهم الصليب الأحمر الدولي والأمم المتحدة بأنهم لا يفعلون ما فيه الكفاية، بما في ذلك القيام بواجبهم والتضحية بأنفسهم لإنقاذ المئات. لكننا نحن في حركة التضامن الدولية سنقوم، والحالة هذه، بتجهيز أنفسنا ببعض النقالات ونتقدم سيراً على الأقدام إلى حيث خسفت روح الإنسانية بشكل فاق كل الحدود في هذه العملية.

كان المستوطنون يجلسون بمؤخراتهم الثقيلة في غرف جلوسهم النظيفة على الكراسي المريحة باسترخاء يشاهدون ساستهم وهم يفرطون في الكلام حول الإستراتيجيات العسكرية ضد حماس. في هذا الوقت كنّا، حرفياً، نذبح هنا. لقد قصفوا المشافي، ومع ذلك كان هنالك من لا يزال يدافع عن حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها. أي بلد ذلك الذي يدّعي الحضارة ويكون الدفاع عن النفس بالنسبة إليه معادلاً للهجوم؟ لقد أحصينا في الأيام العشرين التي انقضت ١٠٧٥ من القتلى الفلسطينيين ٨٥٪ منهم مدنيون كما أحصينا ٥٠٠٠ جريح نصفهم تقلّ أعمارهم عن ١٨ سنة. وتم ذبح ٣٠٣ أطفال بوحشية. وللعجب، فما زال عدد القتلى في الجانب الإسرائيلي هو ٤ قتلى فقط! يشير هذا الأمر إلى أن إسرائيل تعتبر ذبح ما مجموعه ٢٥٠ فلسطينياً على الأقل في حمّام دم انتقاماً كافياً لكل ضحية مدنية إسرائيلية. كيف لا يمكن رد الفعل الوحيد الجانب هذا ألا يعود بنا القهقرى إلى بعض الفترات الكئيبة من التاريخ الأوروبي الحديث؟

دعونا ندخل مباشرة في صلب الموضوع: هل نتحدث بشكل جدّي عن دفاع عن النفس؟ إلى الصحافيين الذين يدعمون اللازمة التي تقول إن حماس تتحمل المسؤولية الكاملة عن هذه الإبادة الجماعية وعن خرق الهدنة بين فلسطين وإسرائيل، أرغب في تذكيرهم بموقف الأمم المتحدة من القضية. لقد عبّر البروفيسور ريتشارد فولك، المقرر الخاص بحقوق الإنسان في مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة العامل في الأراضي الفلسطينية المحتلة، بوضوح عن وجهة نظره: في الحقيقة كانت إسرائيل هي من خرق وقف إطلاق النار في تشرين الثاني/ نوفمبر عبر، ما يمكننا وصفه بشكل حرفيّ، إبادة ١٧ فلسطينياً.

والملاحظ أنه لم يسجل في الشهر المذكور سقوط أية ضحية في الجانب الإسرائيلي ولا في تشرين الأول/ أكتوبر أو في الشهرين اللذين سبقاه. وقد ذكَّرنا الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، الحائز على جائزة نوبل للسلام، بهذه الحقيقة مؤخراً. حقاً إنه لشيء مخزٍ بشكل صارخ بأن يكون صحافي مثل ماركو ترافاجليو، الذي حظي بإعجابنا كمؤيد لحرية الصحافة، داعماً لـ «جيش الدفاع الإسرائيلي» فيعتمر خوذة هذا الجيش ويقوم بتسلية الجمهور عبر شاشة التلفزيون بينما يسلّي نفسه بما هو أكثر رواجاً في الوقت الحاضر ألا وهو: إطلاق النار على الرضّع في غزَّة.

وبينما كنت أكتب بشكل محموم على كمبيوتري المحمول في مقر وكالة رامتان الإخبارية، كان جميع مراسلي وكالات الأنباء الموجودين حولي يرتدون سترات واقية للرصاص ويعتمرون خوذاً. لم يكونوا قد خرجوا توّاً من دباباتهم، بل كانوا بكل بساطة يجلسون أمام أجهزة الكمبيوتر طيلة الوقت. في المبنى نفسه وفي طابقين إلى الأعلى حيث تقع مكاتب رويترز، أصيب، مؤخراً، صحافيان بجروح بليغة جراء استهداف المكاتب بصاروخ. مع أن إسرائيل قد أكدت لرويترز بداية هذا الأسبوع أنه لا يتوجب عليهم الإخلاء كونهم سيكونون آمنين في مكاتبهم. أما في هذه اللحظة فجميع المكاتب الموجودة في المبنى خالية تقريباً ولا يوجد في الجوار إلّا أكثر الصحافيين بطولة. يجب أن تُحكى حكاية هذه الجهنم باستمرار بطريقةٍ ما. أدى قصف مبنى الأمم المتحدة هذا الصباح إلى حدوث أضرار في المبنى الذي موّلت الحكومة الإيطالية بناءَه، إضافة إلى العديد من الأبنية الأخرى. أين أنت يا سيلفيو بيرلسكوني؟

تكلّم جون جنغ مدير عمليات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين

«الأونروا» في قطاع غزَّة بصراحة حول قنابل الفوسفور الأبيض. في حيّ تلّ الهوا في مدينة غزَّة يحترق جناحٌ كاملٌ من مشفى القدس في هذه اللحظات. وقد حوصرت ليلى زميلتنا في حركة التضامن الدولية في الداخل بجانب ٤٠ طبيباً وممرضة و١٠٠ مريض. وقد وصفت لنا تلك الساعات الأخيرة المثيرة عبر الهاتف. فقد تمركزت دبابة أمام المشفى بينما ينتشر القنّاصون في كل مكان وهم على استعداد لإطلاق النار على أي شيء. كما يسود الدمار في كل مكان. ومن خلال نافذتهم كان بإمكانهم ليلاً مراقبة بناء تلتهمه النيران بعد أن تم قصفه. وقد سمعوا أصوات استغاثات أطفال وعائلات بأكملها تلتمس النجدة. كانوا عاجزين عن تقديم المساعدة وهم يراقبون أناساً تخرج إلى الشوارع والنيران تشتعل فيهم، ثم ما يلبثون أن يتحولوا إلى رماد. لقد غيَّر الجحيم موقعه وجاء كي يتمركز في قلب غزَّة، وكنا نحن المغضوب عليهم الذين ابتُلوا بهذه الكراهية اللاإنسانية.

حافظوا على إنسانيتكم!

انقلاب الجغرافيا رأساً على عقب

ابتاريخ: ١٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

هنالك قصة تدور حول رجل فلسطيني مسنّ غادر منزله بحثاً عن وجبة طعام خلال أحد الصباحات النادرة التي تم فيها وقف إطلاق النار. وحين أراد العودة إلى منزله لم يستطع الاهتداء إلى الطريق. كانت القذائف والقنابل قد غيرت معالم مدينة غزّة بشكل جذري عاملة على تشويه بنية المجتمع أيضاً، حيث أجبرت مئات العائلات على الفرار إلى وجهات مختلفة على طول القطاع وعرضه، لدرجة أن مئات العائلات التي سكنت بجانب بعضها البعض لفترات طويلة، فقدت الاتصال فيما بينها. ولكي تصل إلى حي تل الهوى، عليك أن تمشي عبر طريقٍ التفافية.

بعد ٤٨ ساعة من الحصار انسحبت الدبابات الإسرائيلية ليلة البارحة مخلّفة وراءها حُفراً وتلالاً مترامية من الأنقاض. وتظل رائحة الموت الكريهة والواضحة دائمةَ الوجود في هذا المشهد المنعزل. وفي محاولة مني لإيجاد منزل أحمد ناضلت للمرور بما تبقى من أبنية ومنازل وجثث متفحمة خارج العربات وسيارات الإسعاف. لم تكن مهمة سهلة بسبب التحول الجذري الذي سوّى الأحياء كافة بالأرض، فأصبحت مجرد نفايات محترقة على يد القوات العسكرية الإسرائيلية. أتذكر أن أحمد كان يعيش في طرف طريق ترابي، لكن من المستحيل عليَّ الآن أن أميّز مكانه، لأني كنت أكافح كي أخطو برجلي فوق سطح واسع واحد من الحطام الذي يبدو وكأنه مُضِغ وبُصِق من قبل الدبابات.

وإذا ما التقطت الأقمار الصناعية صورة لغزَّة بعد انتهاء هجوم الإبادة الجماعية الهائل هذا، فسيكون من الصعب إقناع أي كان بأن المدينة التي في الصورة هي ذاتها التي في صورة التقطت قبل عشرين يوماً.

أتيحت لي الفرصة بأن أضمّ أحمد مرة أخرى، بدا الأمر وكأننا لم نرَ بعضنا منذ سنوات بعد رحلة طويلة من مكان بعيد. لسوء الحظ لا يلوح في الأفق أي فجر جديد لرحلتنا نحو نهاية الليل، ما عدا ذلك الذي بزغ بالإكراه تجاه أولئك الذين يصدرون الأوامر للجنرالات والجنود للقيام بهذه المذبحة. دلني صديقي على المكان الذي تمركزت فيه دبابة إسرائيلية ليومين، إنه يقع أمام حديقة منزله تماماً. لقد بقيت عائلته خلال هذين اليومين متكومةً تحت الدرج، متخوفة من أن قذيفة تطلق من مدفع هاون قد تزيلهم من الوجود في أية لحظة. والليلة البارحة فقط، عصى أحمد أوامر والده المرتعب وخرج زاحفاً على الأرض ليتجرأ على النظر عبر النافذة إلى المشهد الجهنمي الذي حوله. رأى الدبابة تبتعد حتى حوالى ثلاثين متراً من منزله مصطدمة بقوة بمصراع متجرٍ كبيرٍ محدثةً فجوةً فيه. وراقب بعدها جنوداً خرجوا من العربة المدرعة ودخلوا المتجر عبر الفجوة، متجولين فيه بمرح من أجل (التبضع). ملأوا الدبابة بالبضائع إلى درجة أصبحوا يجاهدون من أجل الدخول فيها. بعد ذلك وصف لي الضحكات التي كانوا يفتعلونها من أجل إدخال البهجة إلى قلوبهم والأغاني الساخرة التي تأتي على شكل موسيقى تصويرية للانفجارات التي كانت تدوّي طيلة الليل: «علي، محمد هذه رسالة إلى ربكما الأكبر!».

المقاومة التي استطاعت أن تعيق تقدم الدبابات الإسرائيلية لعدة أيام قد انتهت إلى الفشل في ظرف ساعات. وبينما لم يستطع الكلاشنكوف

سوى أن يدغدغ دروع الدبابات المصفحة، كان بإمكان قذائف الهاون أن تنسف أي منزل عن بكرة أبيه. وهي مفارقة تندرج على حي الأبراج السكني ذي البنايات الشاهقة الذي تقطنه بشكل أساسي عائلاتُ الهيئة التدريسية الخاصة بجامعة الأقصى المتعاطفون مع حركة فتح والذي لم يأوِ إليه بالتأكيد أي ممن يعتبره سكانه من «إرهابيي حماس». وبقدر يقيني بهذه الحقيقة، فإنني على ثقة بأن هذا الأمر معروف على نطاق واسع في تل أبيب التي لا يضيرها إن تحول هذا الحي إلى كومة من الأنقاض كبقيّة الأحياء الأخرى.

بجانب الأبنية المتهدمة كانت تنتصب مشفى القدس قبل أن تتعرض لحريق البارحة. وقتها سارع رفاقي في حركة التضامن الدولية لمساعدة طاقم المشفى على إخلاء الجرحى الثلاثمائة إلى مشفى الشفاء، مشفى مدينة غزَّة الثاني. استغرق الأمر منهم ساعات عدة لأن نقل مرضى جراحهم بليغة يتطلب استخدام سيارات إسعاف خاصة وهو ما يفتقده الفلسطينيون. انتظرنا حتى آخر شخص تم إخلاؤه برفقة الطبيب داكفين بجوركليد من مؤسسة نورواك النرويجية غير الحكومية، وسألنا الممرضات اللواتي نجون من الحريق بعض الأسئلة.

تلك قصص مرعبة مدعّمة ببيانات رفاقي شهود العيان في حركة التضامن والذين شاهدوا على بعد ٢٠٠ متر من المشفى حوالى ٣٠ جثة كان بينها نساء وأطفال، منهم من كان لا يزال على قيد الحياة ولم يتمكن أحد من إسعافه لأن القنّاصين المنتشرين على الأسطح كانوا يطلقون النار على كل ما يتحرك. تعود تلك الجثث النازفة الملقاة على الطريق لمدنيين نجوا من منازلهم التي شبت فيها النيران بعد تعرّضها للقصف. ولم يتردد القنّاصون الإسرائيليون باصطيادهم واحداً تلوَ الآخر بمن

فيهم الأطفال عندما ظهروا على مناظير بنادقهم.

سأعترف أن شعاري «حافظوا على إنسانيتكم!» قد تم اختباره بشكل مريع في الأيام القليلة الماضية، لكنه رغم ذلك بقي سليماً. لقد استُلّ خلال الأيام القليلة الماضية تماماً كفخر إنسان لارتباطه بأرضه الأصلية. وقد تم وصفه أنه مثله مثل الهوية ومثل حق تقرير المصير الذي مكّن شعب غزّة من الاستمرار. في هذه الأثناء تستطيع أن تلاحظ أنه بدءاً من دكتور الجامعة إلى الناس الذين تلتقي بهم في الشارع، من الطبيب والممرض إلى المراسلين الصحافيين وصيادي الأسماك والمزارعين، الرجال والنساء والمراهقين، هؤلاء الذين خسروا كل شيء ولم يبقَ لديهم ما يخسرونه. جميعهم يستخدم آخرَ نفَس له عبر القول: «إن شاء الله» إكراماً لإيمانهم الصادق بأن جذورهم تمتد عميقاً في الأرض لدرجة لن تستطع معها الجرافات المعادية أن تقتلعهم منها. وبينما أكتب هذا تعرض شاشة تلفزيون بالقرب مني مشاهد من داخل مشفى الشفاء يظهر فيها رجال تغطّي الدموع وجوههم كما لو أنهم يحاولون احتواء فيضان اليأس. وليس بعيداً في حي الشجاعية شرق غزّة، قتلت طلقة دبابة سبعة أشخاص وجرحت ٢٥ آخرين، وجميعهم كانوا يشاركون في جنازة لدفن أفراد عائلة كاملة قتلوا في اليوم السابق. اعتذر وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود باراك البارحة لـ(بان كي مون)، الأمين العام للأمم المتحدة، عن قصف المدفعية الإسرائيلية مقرَّ وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في مدينة غزّة والذي بني بتمويل من الحكومة الإيطالية. (أين أنت يا بيرلسكوني؟). وقال باراك إن هذا العمل ناتج عن «خطأ مريع». لم يحمل كلام باراك أي اعتذار لعائلات الأطفال الفلسطينيين الـ٣٥٧ الذين قتلوا حتى الآن، من الواضح أن

ذلك لم يكن عن طريق الخطأ.

روى لي موظفو الإسعاف في الصليب الأحمر قصة تدور حول موقع مجزرة ذهبوا إليه في حي الزيتون. كان هنالك طفل مصاب بسوء التغذية جاثماً أمام جثة والدته التي وصلت إلى مرحلة متقدمة من التفسخ. وكان قد اعتنى بجثتها لمدة أربعة أيام وكأنها ما زالت على قيد الحياة. لقد مسح الدماء عن وجهها وزحف بنفسه خلال أنقاض ما كان مرة منزلهم جالباً لها الماء والخبز والبندورة ووضعها بعناية بالقرب من رأسها، كان يعتقد أنها نائمة ليس إلا.

كان القنّاصة الإسرائيليون يمنعون الصليب الأحمر من الدخول إلى المنطقة لتقديم المساعدة، فلم يتمكنوا من الوصول إلى موقع المجزرة إلا بعد عدة أيام.

حافظوا على إنسانيتكم!

الحب تحت القصف

١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

ممارسة الجنس تحت القصف: أتذكر أن صديقاً من نابلس أخبرني مرة كم كان من الصعب عليه خلال الاحتلال أن يحصل على لحظة من الألفة مع زوجته. ففي إحدى الليالي وبينما كان مستلقياً في لحظة عناق ملؤها الرقة، ضبطتهما رصاصة حين أقحمت نفسها بينهما فأصابت اللوح الخشبي في مقدمة السرير على بعد بوصات من رأسيهما. يعتبر الغزل تحت القصف في غزَّة هذه الأيام أمراً مستبعداً، أما المستقبل الزوجي للمتزوجين حديثاً فإنه يُعَدُّ كي يأخذ شكل تحدٍّ. العديد منهم قد فقد منزله وهم الآن مجبرون على العيش متكومين على بعضهم البعض في مدارس الأونروا، أو يحشرون في شقق صغيرة مع نحو ٢٠ شخصاً. «اليوم هو السبت والأزواج الجدد في تل أبيب يخرجون للمرح في النوادي أو على شواطئ البحر. في هذه الأثناء لا يمكننا هنا حتى أن نمارس الحب في أسِرَّتنا الخاصة». هذا ما قاله وسام المتزوج في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي والذي أضاف: «ومع ذلك لدينا أضواء متقطعة» في إشارة منه إلى الأضواء التي تظهر وتختفي في الجنوب كدليل على أن القصف جارٍ وفي أوجِه. الشبان أمثال وسام والذين تصل أعمارهم إلى ١٩ سنة يصبحون آباءً في وقت مبكر جداً في هذه الحياة ويصبحون أجداداً وهم في منتصف أعمارهم، مدركين أنه - كونهم في فلسطين - فإن ذلك هو الشكل الوحيد الممكن لبقائهم على قيد الحياة.

بينما كان يتم الحديث في الخارج حول وقف لإطلاق النار، قبلته

حماس وكالعادة رفضته إسرائيل، حصل في اليومين الماضيين تصعيد في عمليات القصف نتج عنه ازدياد ملحوظ في عدد الضحايا بين المدنيين وصل البارحة فقط إلى ٦٠ قتيلاً. فقد قتل نحو عشرة أشخاص خارج أحد الجوامع بعد أدائهم الصلاة. والذي أقلق الفلسطينيين أكثر هو الدعوة إلى وقف لإطلاق النار من دون لحظ إعادة فتح المعابر الحدودية في الوقت عينه. فقبل السماح بدخول المواد لإعادة البناء مطلوب تأمين المواد الغذائية على وجه السرعة وإخراج الجرحى ذوي الجراح البليغة إلى خارج القطاع للعلاج. لقد اكتظت مشافي القطاع إلى حد كبير بالمرضى، وفي حين لا تصل قدرتها الاستيعابية سوى لـ ١٥٠٠ نزيل وصل عدد الجرحى في الوقت الحاضر إلى حوالى ٥٣٢٠ جريحاً. من جهة أخرى، وبالإضافة إلى أن الرأي العام الفلسطيني لا يثق بمصر، فإن الشخصية التي تم اختيارها لتكون وسيطاً في المحادثات، تشتهر قيادتها بالتزلف للإسرائيليين. وفي هذا المجال، سأل الأستاذ الجامعي حمزة الذي بدا كئيباً: «لماذا لا تتوسط الدول الأوروبية؟ فألمانيا التي تعتبر بحق بلداً محايداً كان دورها حاسماً في التوصل إلى حل في النزاع بين حزب الله وإسرائيل».

قصفت دبابة إسرائيلية بشدة هذا الصباح مدرسة أخرى تابعة للأونروا في بيت لاهيا شمال قطاع غزَّة. فجرح جراء القصف ١٤ تلميذاً، في حين قتل بلال ومحمد الأشقر وهما أخوان عمراهما خمس وسبع سنوات. أما أمهما فقد نجت من الموت لكنها فقدت كلتا ساقيها. ومن بين ٤٢,٠٠٠ آخرين، لجأ بلال ومحمد إلى المدرسة بعد أن أمرتهم إسرائيل بإخلاء منازلهم. وقد ظنوا أنهم سيكونون بمأمن هنالك مثلهم مثل الثلاثة والأربعين لاجئاً الذين أبيدوا في السادس من كانون الثاني/

يناير في مجزرة مدرسة الأونروا في جباليا. «كان هذان الطفلان بريئين بلا شك تماما مثل عدم وجود شك بموتهما الآن». هذا ما قاله جون جنغ مدير عمليات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) في قطاع غزَّة الذي يتابع بلا كلل، ورغم عدم وجود أية جدوى، إرسال تقاريره حول جرائم الحرب التي يقترفها الجيش الإسرائيلي. لكن جنرالات الجيش الإسرائيلي ما زالوا غارقين في التحضير للكلمة التي ينوون توجيهها للعالم حول «المهمة المنجزة». عدت إلى ما تبقّى من مشفى تل الهوى، وهو الجزء الذي بقي سليماً من المبنى بعد أن شب فيه حريق بفعل القصف الإسرائيلي. ويتّخذ الآن كوحدة إسعاف وقاعدة لتوجيه سيارات الإسعاف. واستمروا لعدة أيام بإخراج المصابين من تحت أنقاض الأبنية المجاورة لهم والمتضررة بشكل كبير. استضافت مشفى الشفاء طفلاً يدعى صهيب سليمان وهو الناجي الوحيد من عائلة مكونة من ٢٥ فرداً قتلوا جميعاً. كذلك توجد فتاة صغيرة تدعى هديل سموني فقدت ١١ فرداً من عائلتها ولن تجد من يعتني بها إن تمّ خروجها من المشفى.

أرجو المعذرة، لكن هل يوجد أحد يمكنه أن يشرح لي أي نوع من المهام هي هذه التي يقوم بها الجيش الإسرائيلي؟ تلك المهمة التي تبدأ بالعقاب الجماعي ولا تنتهي بالمجازر الجماعية. وقد أوجز أحد العرب المحبطين ويدعى رجا شميِّل هذه العملية على مدونته كالتالي:

> خذ شريطاً من الأرض طوله ٤٠ كيلومتراً وعرضه لايتجاوز ٥ كيلومترات. سمه غزَّة. ثم احشر فيه ١,٤٠٠,٠٠٠ نسمة. ثم أحطه بالبحر من الغرب ومصر مبارك من الجنوب وإسرائيل من الشمال وأطلق عليه تسمية «أرض الإرهابيين». ثم بعد ذلك أعلن الحرب

> عليه وقم بغزوه بـ ٢٣٢ دبابة و ٦٨٧ عربة مدرعة و ٤٣ مطاراً حربياً و ١٠٥ طائرات حوّامة و ٢٢١ وحدة مدفعية أرضية و ٣٤٩ مدفع هاون و ٣ أقمار صناعية للتجسس و ٦٤ مخبراً و ١٢ جاسوساً و ٨٠٠٠ جندي مهاجم. بعد ذلك سمِّ كل هذا الحشد «دفاع إسرائيل عن نفسها». بعد ذلك توقف لبرهة وأعلن بأنك «تتجنب استهداف السكان المدنيين»، صف نفسك بأنك الديمقراطية الوحيدة القائمة. أياً كانت الطريقة التي تنظر فيها إلى الأمور، فإن معجزة فقط هي ما يمكن أن يمنع إصابة المدنيين، أما غير ذلك فهو مجرد كذب. لكن مرة أخرى صف العملية وقل إن «إسرائيل تدافع عن نفسها». ينتصب الآن أمامنا السؤال التالي: ماذا سيحصل لو تحوّل المهاجم ليصبح كاذباً؟ ماذا سيحصل لهؤلاء المدنيين العزّل من السلاح؟ ومع قوة نارية كهذه، كيف يمكن حتى للأم تيريزا أو لميكي ماوس أن يتجنب ضرب جميع هؤلاء المدنيين؟ سمِّ العملية ما شئت، لكن إسرائيل تعرف حق المعرفة أن هؤلاء المدنيين موجودون هناك. وهي نفسها من قذفتهم إلى هناك. بعد كل ذلك عليك أن تسمّي الأمر بالتطهير العرقي، فقط حينئذٍ يمكن تصديقه أكثر.

ما عدا اغتيال اثنين من قادتها، لم تعانِ حماس من هذا الهجوم، وبالتأكيد لم تخسر شعبيتها، هذا إن لم نقل إنها قد ربحت المزيد من هذه الشعبية. سيكون من الحكمة التذكر ولو لمرة، بأن حماس ليست بضعة إرهابيين أو حزباً سياسياً، إنها حركة، وفي هذا الإطار سيكون من المستحيل تحييدها بعواصف من القنابل العنقودية.

عندما سألت بعض الفلسطينيين عن رأيهم في الأجندة الحقيقية التي تقف خلف هذه المذبحة الوحشية، أجاب العديد منهم بأنه سيكون

لها الدور الكبير في الانتخابات الإسرائيلية التي ستجري في شباط/ فبراير[11]. لقد وضعوا حملة دعائية ناجحة تقوم على مبدأ صوت واحد في وقت واحد. كان الأمر يجري على هذا المنوال عشية الانتخابات السابقة جميعها. فمنذ شهر تقريباً، توقع بنيامين نتنياهو بأن يكون هو الرابح المؤكد، لكن الآن من المتوقع أن يخسر في إطار المنافسة ضد إيهود أولمرت وتسيبي ليفني المتعطشين للدماء. أما أفيغدور ليبرمان زعيم حزب إسرائيل بيتنا الذي يتنامى كقوة سياسية فحصل على ١١ مقعداً في انتخابات ٢٠٠٦، لكن استطلاعاً للرأي أظهر بأنهم يكتسبون شعبية رغم تلميحهم باللجوء إلى استخدام الخيار النووي ضد حماس كما فعل الأمريكيون ضد اليابانيين في نهاية الحرب العالمية الثانية[12]. كتب الصحافي الإسرائيلي أبراهام يهوشواع في صحيفة هآرتس يقول: «لقد قتلنا أطفالهم اليوم لنحافظ على أطفال آخرين غداً». ما أخشاه الآن هو أن «رحلته حتى نهاية الألفية» قد انتهت على متن دبابة أمام مشفى يحترق. لقد دعانا فولتير لاحترام جميع الآراء. أما أنا من جانبي، فأقترح التوقف عن بذر بذور الكراهية ورشّهم بالدم وتغذيتهم على الاستياء حتى نهاية العمر.

حافظوا على إنسانيتكم!

---

(١١) جرت الانتخابات الإسرائيلية في العاشر من شباط/ فبراير ٢٠٠٩ وسجلت فوزاً هزيلاً لحزب كاديما المعتدل بقيادة تسيبي ليفني. ولكن، وبسبب عدم تمكّن كاديما من تشكيل ائتلاف فعال، فإن منافسه اليميني حزب الليكود الذي يقوده بنيامين نتنياهو استمر بقيادة تحالف ناجح إلى الحكم.

(١٢) أصبح حزب إسرائيل بيتنا ثالث أكبر حزب إثر انتخابات ٢٠٠٩، وحصل على ١٥ مقعداً وانضم إلى الليكود لتشكيل الحكومة.

الأحياء والأموات

١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

في غزَّة، وحدهم الأموات هم من شهد نهاية الحرب. أما بالنسبة إلى الأحياء فلا يمكن لأي وقف لإطلاق النار أن يغني عن المعركة اليومية المتمثلة بالسعي الدائم للبقاء على قيد الحياة. لا يوجد لديهم مياه للشرب ولا كهرباء ولا غاز للطبخ، كما إنهم يفتقرون إلى الخبز والحليب لإطعام أطفالهم. وفقد الآلاف منهم منازلهم. أما المساعدات الإنسانية فتتسرب عبر المعابر بالقطّارة، ويعتريك الشعور بأن إحسان القتلة المتواطئين، آنيٌّ. سيسافر الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون غداً إلى غزَّة ونحن على ثقة بأن لدى جون جنغ مدير عمليات وكالة الغوث (الأونروا) في غزَّة الكثير من القصص لإبلاغه بها بعد أن قصفت إسرائيل مدرستين تابعتين للأمم المتحدة واغتالت أربعة من موظفيها، كما قصفت ودمّرت مركز الأونروا في مدينة غزَّة، محولةً أطناناً من الأدوية والمواد الغذائية التي كانت مخصصة للسكان المدنيين إلى رماد خلال تلك العملية.

تابعتْ جبالُ الأنقاض في غزَّة لفظ الجثث التي في جوفها إلى السطح. فالبارحة استخرج موظفو الإسعاف التابعين للصليب الأحمر بمساعدة متطوعي حركة التضامن الدولية ٩٥ جثة من تحت الركام في جباليا، أما الجثث في حي الزيتون في مدينة غزَّة فكانت في مرحلة متقدمة من التفسخ. أثناء تجوالي في شوارع غزَّة وبعد تخلّصي من خوفي الدائم من فكرة سقوط قنبلة مصوّبة بشكل جراحي لتقطع عنقي،

ما زلت أرتعد من رؤية كلاب ضالةٍ متحلقةٍ في دائرة، أتخيل ما الذي يمكن أن يظهر أمام عينيَّ مكوناً وجبتها. الرجال الذين تبدو الراحة على وجوههم عادوا إلى الانتشار في المساجد والمقاهي لكن من السهل اكتشاف نزوعهم إلى التظاهر بأن الحالة طبيعية. العديد منهم إما فقدوا قريباً أو لم يبقَ لديهم مكان للعيش فيه. ويتظاهرون بعودتهم إلى روتينهم اليومي كي يرفعوا من معنويات زوجاتهم وأولادهم بطريقةٍ ما، حتى هذه الكارثة يجب التعامل معها.

توجّهنا هذا الصباح بسيارة الإسعاف إلى حيّ تل الهوى وحيّ الزيتون وهما أكثر الأحياء التي طالها التدمير في غزَّة. وتنقلنا من باب لباب حاملين في أيدينا ورقة استبيان لإجراء مسح حول مدى الضرر الذي لحق بالأبنية، مسجلين المتطلبات الأكثر إلحاحاً بالنسبة إلى العائلات التي تقطن هناك، وكان أكثر ما يحتاجونه هو الأدوية للمرضى وكبار السن والرز والزيت والطحين، أي بشكل أساسي اللوازم الضرورية من أجل حصولهم على لقمة عيش. كل ما كان يمكننا تقديمه لهم حتى الآن هو أمتار من رقائق النايلون ليستعيضوا بها عن زجاج نوافذهم المكسر اتقاءً للبرد. أبلغني زملائي في حركة التضامن الدولية في رفح أن البلدية قد وزعت بضعة آلاف من الدولارات على العائلات التي هُدمت منازلها بشكل كلي وسويت بالأرض بفعل القنابل التي وجهت إسرائيل قنابل مماثلة لها لتدمير الأنفاق. عند انتهاء معارك حرب تموز/يوليو في لبنان وزّع حزب الله ملايين من الدولارات على شكل شيكات لدعم المواطنين اللبنانيين الذين دمرت منازلهم. أما في غزَّة المحاصرة والتي فرضت عليها المقاطعة، فمن الصعب على حماس أن تتمكن من دعم مناصريها بما هو بالكاد يكفي لبناء حظيرة للماشية كما

قال خالد، وهو مزارع من رفح.

وحيث إن الهدنة أحادية الجانب، قررت إسرائيل من طرفها ألّا تحترمها. حيث قتل البارحة طفل فلسطيني وجرح آخر في خان يونس. كما أمطرت حوامة إسرائيلية منطقة سكنية شرق مدينة غزَّة بقنابل الفوسفور الأبيض وفعلت الشيء ذاته في جباليا. أما اليوم فقد أطلقت سفينة حربية قذائفها على سهل مفتوح من دون أن تصيب أحداً بأذى. لكن بينما أقوم بكتابة هذا التقرير تواردت أنباء عن تقدم دبابات نحونا. مع أنه ليس لدينا علم بإطلاق أي صاروخ فلسطيني في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة.

الصحافيون الدوليون يتذمرون بسبب الأنباء التي انتشرت على طول القطاع. لم يستطيعوا الدخول سوى اليوم، لأن إسرائيل لم تسمح لهم بالمرور إلا بعد أن أوشكت المذبحة على الانتهاء. أما أولئك الذين دخلوا القطاع في أوج المعركة فقد تحدّوا أخطاراً محدقة، كما أبلغني «لورينزو كريمونيسي» مراسل صحيفة كورير ديلا سيرا اليومية، وكان رصاص الجنود الإسرائيليين قد أحدث ثقوباً في السيارة التي يتنقّل بها. وبينما كنت واقفاً بجانب الهيكل المحترق لما تبقى من مشفى القدس في مدينة غزَّة، سألني مراسل الـ بي بي سي المذهول كيف أخطأ الجيش وأصاب البناء بدل أن يصيب معقل الإرهابيين. أجبته: «للسبب نفسه الذي دفع الأطفال للفرار من الأبنية المحترقة كي يصبحوا على مرمى القنّاصة المتمركزين على الأسطح والذين لم يترددوا بقتلهم، ناثرين أدمغتهم فوق الطريق». عندها قطّب المراسل حاجبيه أكثر. إن الفرق الهائل بيننا نحن شهود العيان والضحايا المباشرين لهذه المذبحة من جهة، وبين أولئك الذين سمعوا بها من خلال قصصنا قد أصبح الآن

أكثر بروزاً.

أُبلغتُ من روما بأن الاتحاد الأوروبي ينوي تجميد التمويل الذي تم تخصيصه لإعادة بناء غزَّة طالما بقيت محكومة من قبل حماس. وقد أوضحت المفوضة الأوروبية للعلاقات الخارجية بينيتا فيرّيرو والدنر هذه النقطة كالتالي: «ستصل المساعدة المخصصة لإعادة بناء القطاع فقط في حال أعاد الرئيس الفلسطيني أبو مازن فرض سلطته على القطاع مرة أخرى». بالنسبة إلى الفلسطينيين المقيمين في غزَّة يعتبر هذا التصريح الذي أدلى به الدبلوماسي الأوروبي دعوة واضحة من الخارج للدخول في حرب أهلية أو للقيام بانقلاب. وهو مرادف لإعطاء الشرعية لعملية قتل ٤١٠ أطفال قتلوا بسبب دعم أهلهم لحكومة حماس المنتخبة ديمقراطياً في انتخابات حرة.

«يتبع الاتحاد الأوربي بعناية سياسة العقاب الجماعي الإجرامية التي تفرضها إسرائيل. لماذا لا يودع الأموال لدى الأمم المتحدة؟ أو بعض المنظمات الحكومية؟ الولايات المتحدة حرّة بانتخاب تاجر حرب مثل بوش، كذلك تستطيع إسرائيل أن تنتخب قادة ملطخة أيديهم بالدماء أمثال شارون أو نتنياهو، لكن نحن أبناء غزَّة ألسنا أحراراً كي نختار حماس؟». كان ذلك ما خطر في بال محمد، ناشط حقوق الإنسان الذي لم يُدلِ بصوته لصالح الحركة الإسلامية. بالنسبة إليّ، لا أملك أية حجة كي أناقضه بها.

يتعلم الفلسطينيون الأحياء من موتاهم، فمنذ نعومة أظفارهم يتعلمون أن يعيشوا في الوقت الذي يموتون فيه. هدنةٌ بعد هدنةٍ، يتكرَّسُ الفهمُ العامُّ لكل هدنة هنا بأنها توقّف مرعب يتم خلاله إحصاء عدد القتلى بين مذبحة وأخرى، ولم يسبق أن كان السلام مراوغاً كما هو

الآن. فخلال تجوالنا في مدينة غزَّة على متن سيارة الإسعاف والصفارة متوقفة عن العمل يمكننا أن نجد أن الحرب ما زالت في كل مكان. نجدها بين أنقاض مدينة سُرقت منها البسمة ومسكونة الآن بأناس مرتعبي النظرات تبقى عيونهم مصرّة على تفحص السماء بحثاً عن طائرات لا تزال تطير من دون توقف في الأعلى.

لاحظت في أحد البيوت التي زرتها بصحبة بعض المسعفين بأن عدة رسوم مرسومة بأقلام تلوين كانت مرمية على الأرض. من الواضح أن يد طفل قد تخلّت عنها بعد إخلاء المنزل في اندفاعة جنونية. التقطتُ إحدى تلك الرسومات وكانت لدبابة وحوّامة وطفل مقطّع الأوصال. في منتصف اللوحة يظهر طفل ممسكاً بحجر وقد نجح بالوصول إلى مستوى ارتفاع الشمس بعد أن تسبب بإحداث أضرار لآلات القتل الطائرة. قيل إن الشمس تمثل في رسومات الأطفال رغبتهم في الكينونة وفي الوجود. رأيت أن الشمس تبكي ذارفةً دموعاً من دم تم تلوينها بأقلام الباستيل. هل يعتبر وقف إطلاق النار أحادي الجانب مجدياً بما فيه الكفاية للشفاء من تلك المصائب؟

حافظوا على إنسانيتكم!

هدنات الموت

٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

«عندما تنتشر تفاصيل دمار قطاع غزَّة الشامل سيكون السبب الوحيد لذهابي إلى أمستردام هو للوقوف أمام محكمة لاهاي الدولية». نسبت جريدة هآرتس هذه الكلمات إلى وزير إسرائيلي فضّل عدم الكشف عن اسمه.

يتوق أعضاء منظمات حقوق الإنسان والمواطنون الساخطون في كل أنحاء العالم إلى مشاهدة الجيش الإسرائيلي وحكومته يجرجرون إلى داخل قاعات المحكمة، على أمل أن يُدانوا بسبب جرائم الحرب التي ارتكبتها أيديهم التي تلطخت بالدماء خلال العدوان الوحشي الذي استمر ٢٢ يوماً.

لم يكن قادة الجيش الإسرائيلي وأعضاء الحكومة يبدون متجانسين كثيراً أثناء ظهورهم العلني. وكانوا يدّعون أن لديهم براهين قاطعة على أن المواقع التي قصفوها كانت كلها قواعد دعم لاستخدام «إرهابيّي» حماس. دعني أقدم هذه المداخلة رداً على كلامهم: إننا نتكلم عن آلاف المنازل التي تضررت جراء القصف وعن ١٣٠٠ قتيلٍ.

للتحقق من مخابئ التطرف الإسلامي الإستراتيجية المهمة المزعومة هذه، توجهت إلى جبل الدردور شمال القطاع، وهو واحد من أكثر المناطق التي تعرضت لقصف عنيف. كانت عشرات المنازل قد سويت بالأرض. وكانت الجرافات الماموثية الحجم المصفحة والتي

صنعتها شركة كاتربلر (قاطِعوها!) بناءً على طلب الجيش الإسرائيلي لتدمير المنازل الفلسطينية وتسويتها بالأرض قد استخدمت لمد يد العون إلى دبابات الجيش في مهمتها التدميرية. رأيت هناك رجالاً ونساءً يفتشون عن خرق ثيابهم أو بعض الحقائب المدرسية المعفرة بالتراب أو الصور الشخصية المكسورة الأطر التي تضمّ عائلاتهم. لم يقع نظري على أية ترسانة عسكرية مدمرة، كل ما رأيته هو منازل انفصلت أسقفها عن الجدران حيث يمكنك أن تشاهد ما كان مرة غرفةَ جلوسٍ أو بقايا غرفةِ نومٍ أو مطبخٍ تحوّل إلى رماد.

دعاني أبو عمر، الباحث في علم الأحياء الجزيئي، لرؤية ما تبقى من شقته. كذلك دعاني جاره أسامة، طبيب الأطفال، لرؤية منزله الذي تحوّل إلى ما يشبه المنخل بسبب الرصاص. وعملت القوة الدافعة للصواريخ على نثر بعض أطلال بيارة البرتقال المجاورة فوق البناء، فاختلط عصير البرتقال مع الدم المخثر وانتثر على الأرضية مشكلاً ما يشبه لوحة رسام ساذج.

اقترب منّا رجل مسنّ معتمراً كوفية وسأل نتالي رفيقتنا اللبنانية في حركة التضامن الدولية من أين هي. ملوحاً عكازته في الهواء كأنه يرسم قوساً فوق المنظر الطبيعي المدمَّر قال: «بيروت وغزَّة: اللوحة نفسها والرسّام نفسه». حتى عشّ اليمام الخاص بأسامة لم يسلم من القصف. كانت طيوره ملقاة على الأرض وكأنها مهزومة بفعل السماء الثقيلة جداً على أجنحتها، الثقيلة بدورها بسبب «الرصاص المصبوب». قلت لطبيب الأطفال: «لقد حاولوا أن يهزموا القوات الجوية الفلسطينية، أو ربما ظنوا أن هذه الطيور قد تكون سعاةً لحمل الطرود إلى حماس». فضحك أسامة بحزن.

وبينما خرجنا في جولتنا بسيارتنا المعطوبة مررنا في الطريق بوفد الأمم المتحدة الذي يرأسه الأمين العام بان كي مون متنقلاً في رتل طويل من السيارات الرياضية الجديدة وذات الزجاج الملون والتي ترفع شعار الأمم المتحدة، مندفعاً عبر غزَّة وكأن الأرض تهتز تحت الدواليب، ذلك الاهتزاز الذي بقي متواصلاً حتى الأيام القليلة الماضية.

عندما كنت أطوف في اللغز المستحيل لخرائب جبل الدردور سمعت أحداً يناديني باسمي. عندما نظرت خلف كتفي، رأيت أبا أشرف. كنت قد شاركت بجنازة ولده الذي قتل بقنبلة في تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي وهو الشهر الذي تمت الدعوة فيه إلى وقف إطلاق النار حسب الإعلام الإسرائيلي والغربي. فقد أبو أشرف مؤخراً أحد أقربائه وسوِّي منزله بالأرض. قال وهو يشير إلى بستان الزيتون الذي يخصه: «لم يتركوا لنا أي رأس ماشية أو شجرة زيتون أو حتى حجر، إنهم ليسوا بشراً».

لقد سحقت الجرافات الإسرائيلية العديد من الأشجار وخاصة تلك التي وصل عمرها إلى أكثر من مئة عام. يبدو الأمر وكأنهم يحاولون أن يعوّضوا عن عدم تمكّنهم من محو الحياة التي لا يمكن اجتثاثها من جذورها، ولا محو هوية الفلسطينيين ولا رغبتهم العارمة بالعدالة والنجاة من كل تدمير. وبعدما مشيت مسافة صغيرة، اقترب مني رجل متوسط العمر وسألني إن كنت أعتقد أن جميع الفلسطينيين هم فدائيون تابعون لحماس. كانت ترفرف في نافذة بيته المتضرر راية حركة فتح الصفراء. قال لي مناصر حركة فتح هذا: «إن سلاح الكلاشينكوف هو إيماننا وشرفنا، وسوف ندافع عن أرضنا بأسناننا وأظافرنا كما يمكن أن تحمي أنت ابنتك من الاغتصاب».

إذا كان هدف إسرائيل البعيد هو عزل القطاع وتخليصه من حماس بزرع الفرقة بين أبناء الشعب المنقسم أصلاً بسبب الخلافات الداخلية، فإن إسرائيل قد حققت عكس ما ابتغت. لقد أعاد القصف إلى غزّة هويتها الوطنية. أما الاختبار الملموس للوضع الجديد فتمثّل بالمقاومة الفلسطينية التي كانت بطولية في محاولتها وقف تقدم الجيش الإسرائيلي. وقد قاتل ذَوو اللحى المتدلّية من مقاتلي ألوية عز الدين القسام الإسلامية، الـذراع العسكرية لحماس، جنباً إلى جنب مع الفدائيين الماركسيين ذوي اللحى الرياضية من مقاتلي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومقاتلي شهداء الأقصى الذراع العسكرية لحركة فتح. الزمن وحده سيثبت إن كانت هذه الوحدة الجديدة بين المجموعات المسلّحة هي انعكاس للوحدة ضمن المجتمع المدني والسياسي.

تاركين وراءنا الجوّ المقمر في جبل الدردور وهياكل أبنيته، توقفنا أمام طفل متجهّم الوجه جالساً فوق كومة من الأنقاض أو ما تبقى من فناء منزله. سألناه عما يدور في ذهنه. في كلماته البسيطة كان يقول إن حماس ومقاومتها هما المسؤولان عن هذه المأساة. فقامت فدا، رفيقتنا في حركة التضامن الدولية بالتنحي به جانباً بطريقة أمومية وأخبرته بإيجاز عن تاريخهم. حكت له عن جنود دخلوا إلى رفح سنة ٢٠٠٤ وقاموا بهدم أحد الأحياء بشكل كلّي مثلما حصل هنا منذ أيام. في فترتها لم تكن حماس موجودة على الساحة، بل كان ياسر عرفات قائد حركة فتح الذي كان مصنَّفاً إرهابياً وعدوَّهم الأول الذي كانوا يسعون لخلعه عن السلطة وطرده من فلسطين. لكن بدل استهداف معاقل حركة فتح قام الجنود الإسرائيليون بإطلاق النار والقصف بشكل عشوائي فقتلوا العشرات من المدنيين ودمّروا وقتها منزل فدا خلال هجومهم.

خلال عودتنا إلى مدينة غزَّة سقطت سيارتنا في حفرة أحدثتها جنازير دبابة في الخرسانة. جال سائق التاكسي حول المكان وقال: «كان الموت هنا وقد ذهب تاركاً آثار أقدامه». أتساءل: كم هو الوقت الذي ستستغرقه ندوب هذه الأرض كي تشفى؟

حافظوا على إنسانيتكم!

ما الذي رأته دموعها

٢٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

عبرت عتبة منزلي في حيّ الميناء مقابل مرفأ المدينة بعد بضعة أيام من الغياب. بقي كل شيء على حاله مثلما تركته تماماً، قارورة الغاز ما زالت فاقدة الشهية (فإطعامها مكلف جداً) والكهرباء مقطوعة بفعل كماشة غريبٍ ما. أما المنظر البانورامي البديع الذي كان يظهر من نافذتي فقد تغيّر ولم يعد يرفع من معنوياتي المنهارة بفعل مآسي العيش تحت الحصار. على العكس، إنه الآن مثل وضع الملح في الجرح، ذلك الجرح الذي لن يندمل طالما ذكريات المذبحة ما زالت ماثلة. على بعد عشرين متراً من مدخل المنزل كانت تنتصب محطة الإطفاء التي لم تعد موجودة، وأصبح مكانها حفرةٌ ضخمةٌ مقعّرةٌ تتسع للأطفال كي يعبثوا فيها ويطوفوا حولها كأنما يطردون الخوف من نفوس أهاليهم.

لم يعد لِأذان الظهر تلك الخاصية المريحة ذاتها لترتيل المؤذن الصادح الذي كبرتُ وأنا معتاد عليه. لا أدري أين ذهب المؤذن أو إن كان قد استطاع النجاة ومتابعة عمله على واحدة من المآذن القليلة التي بقيت سليمة. آخر مرة أصغيت فيها إليه، اضطر ذلك المؤذن المجهول إلى قطع أذانه المهيب بسبب نوبة سعال صدري حادّ. إنه بلاء ابتليت أنا نفسي به، حيث إن غازات القنابل التي ألقيت على غزّة لم توفر أحداً من شرّها. وجدتُ ورقة في إفريز نافذتي الفرنسية الطراز، كانت تحدق في شرفة منزلي الصغيرة وكأن صديقاً ما قد وضعها هناك.

إنها عبارة عن واحدة من تلك الأوراق التي كانت تلقيها الطائرات الإسرائيلية لتحذير الفلسطينيين كي يبقوا يقظين، وأن يدركوا أن للجدران آذاناً وعيوناً. «عند أقلّ عمل تهديدي ضد إسرائيل سنعود إلى اجتياح قطاع غزَّة مرة أخرى، وما شهدتموه هذه الأيام يعتبر لا شيء مقارنة بما ينتظركم». التقط بعض الصبية هذه المنشورات وقاموا بطيّها على شكل طائرات ورقية في ما بدا أنه إعادة إرسال الرسالة إلى مقصدها.

أخبرني أحمد عبر الهاتف عن لعبة جديدة يلعبها الأطفال. فحتى عدة أيام كانوا يتسلون بإعادة إيقاد النار، وبكل بساطة، عن طريق ركل بقايا الفوسفور الأبيض المتناثر على طول القطاع وعرضه. حيث إن بقايا هذه القنابل لها خاصية سرعة الاشتعال ولفترة طويلة. وحتى لو التقطتها بعد عدة أيام من انفجارها تبقى قابلةً للاشتعال في حال تعرّضها للاهتزاز. ويتحدث موظّفو الإسعاف في مشفى القدس كيف أنهم أقلعوا عن محاولة إطفاء النيران التي تثيرها هذه القنابل المحرمة، فقد اكتشفوا أن ألسنة اللهب تتغذى على الماء الذي يُلقى عليها لإطفائها. وأبلغني الدكتور منير، وهو طبيب في مشفى الشفاء، أن: «عواقب كل تلك الأشياء التي ألقيت علينا خلال الأسابيع الثلاثة الماضية سوف تظهر إلى السطح مرة أخرى في المستقبل القريب عبر حالات جديدة من مرض السرطان والمواليد المشوَّهين».

بدا كذلك أنه، حتى جيران غزَّة قلقون من الاستخدام الهائل لتلك الأسلحة التي حرّمتها جميع القوانين والشرائع الدولية. ففي سديروت وعسقلان طلب السكان الإسرائيليون توضيحات من حكومتهم عن الأسلحة التي ألقيت علينا من أجل تعذيبنا. من الواضح أنه قد تم نثر اليورانيوم المنضّب والفوسفور الأبيض بهذه الطريقة الوحشية فوق تلك

الرقعة الصغيرة جداً من الأرض التي تسمى غزَّة، وهي بذلك لن تميّز بين مسلم ويهودي عندما يتعلق الأمر بالتسبب بأمراض عامة.

ينبغي أن تكون الهدنة قد دخلت حيز التنفيذ منذ الآن، إلا أنني استيقظت اليوم على صوت طلقة مدفع مصمٍّ للآذان أطلقتها سفينة حربية، تماماً مثلما كان عليه الأمر قبل عدة أيام. خاطر بعض الصيادين الفلسطينيين الشجعان المحمّلين بشباك الصيد بالخروج من المرفأ إلى الصيد بقواربهم الصغيرة، لكن البحرية الإسرائيلية أجبرتهم على العودة. السمك الوحيد الموجود في غزَّة هذه الأيام والذي يمكن تناوله هو معلبات التونة المصرية التي جاءت عبر الأنفاق منذ أشهر. انفجر في شرقي مدينة غزَّة جسم غريب فقتل طفلين كانا يلهوان به. وتحدث شهود العيان الذين قابلناهم عن ألغام لا تزال فاعلة وموجودة الآن أمام أنقاض منازل تل الهوى. وقد قام بعض خبراء نزع الألغام الذين أرسلتهم حركة حماس بإزالتها، وأعتقد أنه من خلال العناية التي حملوها بها إلى عربة متوقفة خارج الطريق، فإن ألوية عز الدين القسام يمكن أن يعيدوا رسائل الموت هذه مباشرة إلى مالكيها القانونيين في وقت قريب جداً.

بالنظر من فوق سطح منزل نعيمة نرى أن الحدود الفلسطينية الإسرائيلية لم يكن يبدو من السهل تحديدها. في إحدى الجهات توجد تلال حافظت على اخضرارها لسقايتها بشكل دائم من قبل الكيبوتسات الإسرائيلية. على الطرف الآخر ترى العطش في أرض سرقت مياه ينابيعها. رغبت نعيمة في إخباري كل ما جرى لها في الأيام القليلة الماضية، رواية تعتمد على اللمس والسمع والشم في سردها للمجزرة على اعتبار أن نعيمة فتاة عمياء. أمر الجنود بنبرة تهديد أهل قريتها بإخلاء منازلهم والرحيل خلال دقائق قبل اقتحام المكان. حمل الرجال

الأطفال الصغار فوق أكتافهم وهربوا مع نسائهم. اختارت نعيمة البقاء كي لا تُبطّئ هربهم. أما ملجؤها فلم يكن سوى منزلها الذي أملت أن يبقى سالماً، واستضافت جيرانها الذين ليس لديهم مكان آخر يذهبون إليه وهم ثلاث نساء وسيدة مسنّة ورجل مسنّ مشلول.

بعد ذلك جاءت الدبابات والبلدوزرات ناشرة الموت والدمار ملتهمة هكتاراً من الأرض تلو الآخر إلى أن توقفوا أمام منزل نعيمة، وهو منزل ينتصب فوق تلة صغيرة، وكان يعتبر أعلى بناء في القرية. وعندما وجد الجنود الإسرائيليون أنه ذو موقع استراتيجي دخلوا إليه واحتلوه لأسبوعين. قالت نعيمة: «دخلوا إلينا وصوبوا بنادقهم نحونا ودفعونا إلى غرفة صغيرة حيث سُجِنَّا لمدة أحد عشر يوماً. خلال تلك المدة كلها جلبوا لنا مياه الشرب مرتين فقط، أما الطعام فقد جاء على شكل بقايا الوجبات التي كان يخلّفها الجنود. ولم يسمحوا لنا بالخروج إلى دورة المياه فكان علينا أن نقضي حاجتنا في زاوية من الغرفة. ولم يسمحوا لنا بالتكلم مع بعضنا البعض، وكانوا يأتون إلينا في الليل ويضربوننا، وعند ذلك كنا نتكوّم على أنفسنا في حلقة، محاولين الحصول على بعض القوة من خلال الصلاة. كانوا أحياناً يجيئون كي يخيفونا بوضع بنادقهم في مؤخرة أعناقنا، طالبين منا أن نعترف بدعمنا المزعوم لحماس فيهينوننا عندما لا نمتثل لذلك».

عند نهاية اليوم الحادي عشر لحبسنا، جاء الصليب الأحمر أخيراً وحرر السجناء الستة من بين أيدي سجّانيهم. أردفت نعيمة بعد قليل في محاولة منها لإنهاء قصتها: «لم يسمحوا لنا باصطحاب أي شيء حتى نظاراتي الشمسية». وأضافت أنه عندما عادت هي وجيرانها إلى منازلهم اكتشفوا حجم المسروقات التي سطا عليها الجنود. لقد سرقوا حليّهم

الذهبية وبعض المدخرات المخبأة بعد أن دمروا ممتلكاتهم القليلة من جهازي تلفزيون وراديو وثلاجة وألواح الطاقة الشمسية الموجودة على السطح. رأيت دموعاً في عيني تلك المرأة أخفتها خلف زجاج نظارتها الداكنة. لقد تبين أن هؤلاء الناس هم أكثر الناس وضوحاً قابلتهم خلال حياتي. في الحقيقة ما (رأته) نعيمة أكثر بكثير مما يمكن أن يتاح لشابة في مثل سنها أن تراه، إذا ما كان حظها سيئاً وولدت في هذا القطاع المعذب من الأرض.

حافظوا على إنسانيتكم!

استمرار بؤرة الكارثة

٢٩ حزيران/يونيو ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

«الحصار هو لبّ العدم. إنه مركز التعاسة البشرية. إنه مركز اليأس والإحساس المتعاظم بتعثر الأمل».

جون جنغ

مدير عمليات الأونروا في غزة

مرت ستة أشهر على انتهاء الغزو الإسرائيلي الذي عرف بـ «الرصاص المصبوب» ولا تزال غزّة تبدو أرضاً منتهَكة وكأنها مركز زلزال عنيف وقع مؤخراً. لم يتغير الكثير منذ ١٨ كانون الثاني/ يناير، اليوم الأخير من حملة القصف. فجراحها العميقة ما زالت ماثلة حتى الآن: ما زال القطاع في جزء كبير منه عبارة عن أنقاض. ولا تزال أكثر خطط إعادة البناء التي أُشبعت نقاشاً، حبراً على ورق. أما بالنسبة إلى الفعل فينحصر في توزيع حفنات من الدولارات من أجل نقل الأنقاض من مكان إلى آخر. لقد منع الحصار الدائم الذي فرضته تل أبيب براً وبحراً وجواً، وصول معظم المساعدات إلى غزّة. وتبعاً لتقرير مكتب منسقيّة الشؤونِ الإنسانية، فإن الحظر شمل المواد الضرورية لإعادة البناء وقطع غيار الآلات وحتى التعاملات المالية، كل ذلك عرقل تنفيذ مشاريع إعادة البناء التي تم التخطيط لها. خلال المجزرة تضرّر أو دُمّر

بفعل القصف الإسرائيلي ٢١,٠٠٠ بناءٍ مدني بما فيها ٥٧ مركزاً طبياً و٥١ مدرسة و٥٩ مدرسة تابعة للأمم المتحدة إضافة إلى ١٥٠٠ مصنعٍ ومتجرٍ و٢٠ شبكة مياه للشرب والصرف الصحي ووحدات توليد الطاقة الكهربائية، وقُدّرت تكاليف إصلاح الأضرار وإعادة البناء بما قيمته مليار وتسعمائة ألف دولار أمريكي.

أصبح مائة ألف فلسطيني بلا مأوى، وأجبر العديد منهم يوماً بعد يوم على العيش في خيام في مخيمات اللاجئين بحي الزيتون وعبد ربه. استحضرتْ هذه المأساة المؤلمة مرة أخرى ذكريات النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨. حينها اتبعت إسرائيل سياسةً منظمةٍ للتطهير العرقي حين طردت مئات آلاف الفلسطينيين من أراضيهم فأُجبروا على الاحتفاظ بآمالٍ محدودة في حياة جديدة ما زالوا يفكرون فيها وهم في مخيمات اللجوء.

لم تتم المباشرة بعد بإعادة البناء وذلك، بكل بساطة، بسبب الحظر الذي لا يزال مفروضاً بشدة على دخول الإسمنت ومواد البناء الأخرى. كما لا يمكن الحصول على الموافقة الإسرائيلية لإدخال الأنابيب وقطع الغيار الخاصة بشبكتَي المياه والصرف الصحي مجبرِين أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ مواطن على العيش من دون مياه جارية في وقت يفتقر فيه ٤٠٪ من السكان إلى الطاقة الكهربائية، لأن إدخال الأسلاك الكهربائية وقطع الغيار المتعلقة بالطاقة الكهربائية ممنوعٌ أيضاً.

ادّعت إسرائيل بأنها قد فرضت حظراً على الاسمنت لأن الفلسطينيين سيستخدمونها في إعادة بناء الأنفاق في رفح. رغم ذلك تمثل الأنفاق الشكل الوحيد الممكن للإغاثة عندما يتعلق الأمر بشراء الحصص الغذائية والسلع الضرورية للسكان المدنيين الواقعين منذ

سنتين في قبضة حصار عديم الرحمة. كذلك لن تسمح إسرائيل بدخول الحديد، لأن المجموعات المسلحة سوف تستخدمه في صنع صواريخ القسام المحلية الصنع والسيئة السمعة في إسرائيل. كذلك تمنع إسرائيل دخول الزجاج، لكن ما عذرهم لهذا المنع؟ ذلك ما لا أعرفه. عندما تزور المشافي الرئيسة في القطاع، وتنظر إلى واجهات هذه المباني ما زال بإمكانك، بكل بساطة، أن تميز رقائق النايلون المثبتة على النوافذ للاستعاضة بها عن ألواح الزجاج الذي حطمه قصف القنابل.

بالإضافة إلى الموادّ التي تستخدم في إعادة الإعمار تمنع إسرائيل دخول لائحة لا نهائية من المنتجات الضرورية للحياة اليومية. أما المواد المسموح إدخالها إلى القطاع فلا يتعدى عددها ٤٠ سلعة تجارية بالمقارنة مع ٤٠٠٠ سلعة كان دخولها مسموحاً به قبل فرض الحصار. يعقد كل أسبوع ١٠ من ضباط الجيش الإسرائيلي اجتماعاً يسمى (تنسيق النشاطات الحكومية في المناطق)، ويقررون أنواع الأغذية والسلع التي يمكن السماح بدخولها للإبقاء على مليون ونصف المليون فلسطيني قيد الحياة. تندرج السلع القليلة المسموح بدخولها ضمن ثلاث فئات: الغذاء والدواء والمنظِّفات. أما ما عدا ذلك فهو ممنوع، مثل: مواد البناء والسباكة والآلات وقطع غيار السيارات، السلع النسيجية والخيوط، المصابيح، الشموع وأعواد الثقاب، الآلات الموسيقية والكتب والألبسة والأحذية والمفارش والشراشف والبطانيات، لوازم المائدة والأواني الفخارية والأكواب والزجاج والماشية. مؤخراً أصبح الكولونيل موشي ليفي والكولونيل أليكس روسنزوايغ والكولونيل دورون سيغال الرؤساء التنفيذيون في مجموعة (تنسيق النشاطات الحكومية في المناطق) أكثر تساهلاً في ما يخص الخضار والفواكه كالموز والخرما والتفاح والقرع

والجزر. وفي الوقت نفسه استمر تصنيف المشمش والخوخ المجفف والأفوكادو بشكل اعتباطي تحت بند الرفاهية. سمح منذ مدة للسكان الفلسطينيين بإدخال البطيخ، وهو قرار اتخذه القسم الاقتصادي في مجموعة (تنسيق النشاطات الحكومية في المناطق) على قاعدة أنهم يرغبون بمنع هبوط مبيعاته في إسرائيل. أما وصول المواد المدخلة للبهجة مثل الكرز واللوز والرمان والشوكولا فهو أمر ممنوع بصرامة. ويتغير قرار تصنيف المواد التي يجب أن تدرج في «بند الرفاهية» من أسبوع إلى آخر وأحياناً بشكل يومي. فمعكرونة الباستا التي كانت ممنوعة في ما مضى، أصبح دخولها مسموحاً به الآن والفضل يعود لتدخل السيناتور الأمريكي جون كيري الذي قدم في زيارة لقطاع غزَّة في شباط/ فبراير وقد ذهل لسماعه أنباء منع دخول الباستا. يمكن إيجاد الباستا الآن على رفوف مخازن بيع الأغذية التي تفتقر إلى السلع المثلّجة واللحوم المعلّبة و١٦٠ صنفاً من الأدوية والشاي والقهوة والسميد واللحوم المعالجة ومنتجات الألبان. ويسمح بدخول كمية محدودة جداً من الوقود الصناعي وهو السبب الذي يكمن وراء افتقار مولّدات الطاقة الدائم للوقود، مما يسبب التعتيم اليومي الذي يصيب مناطق العشوائيات في قطاع غزَّة.

في وقت كان يجري فيه تغيير كلّي للوزراء والقادة الإسرائيليين، أعلنت إسرائيل للعالم بأنه لا يوجد كارثة إنسانية في غزَّة في هذه الأثناء. لا يبدو عليهم الخجل من إبراز دخول مئات الشاحنات إلى القطاع عبر الحدود الإسرائيلية، وهو ما يبدو سيئاً جداً حين نعلم أن الأمم المتحدة قد حددت أن الحاجة تقتضي إدخال ٥٠٠ شاحنة من المساعدات على الأقل لتغطية الاحتياجات الأساسية للسكان المدنيين الذين يعيشون

في ظروف الحصار الحالي. وتبعاً لليونيسيف، فإن الوضع في غزَّة قد ساء، كما كان متوقعاً، إلى حد كبير منذ الهجوم الإسرائيلي. وكان ٨٠٪ من سكان القطاع يعتمدون على المساعدات الإنسانية في حياتهم قبل عملية الرصاص المصبوب. لكن بعد تلك العملية، أي بعد ٢٢ يوماً فقط، ارتفعت تلك النسبة لتصل إلى ٨٨٪. كما ازداد عدد الأطفال ذوي الوجوه المتّسخة والثياب الرثة الذين يقفون على زوايا الشوارع يستعطفون للحصول على بضع قطع نقدية من السيارات العابرة مقابل بيعهم باقات من البقدونس والنعناع. أتساءل عندما أراهم: ما الذي حل بعائلاتهم؟

كيساري إيطالي، كان يُعتبر تناقضاً بالنسبة إليّ، التظاهر إلى جانب الجماعات الشيوعية الفلسطينية يوم عيد العمال العالمي للاحتفال بالعمال في أرض وصلت نسبة العاطلين عن العمل الآن فيها إلى أكثر من ٧٠٪. بعد كانون الثاني/يناير لا يتم تشديد حالة الحصار على دخول البضائع الأساسية إلى القطاع، بل على حرية تنقل سكانه. فمعبر رفح على الحدود مع مصر لا يفتح أبوابه سوى ليومين في الشهر. ومن بين آلاف الفلسطينيين الذين يحملون جوازات سفر وتأشيرات دخول إلى أوروبا وأمريكا والمتجمهرين على الحدود آملين في كل مرة بإحداث اختراق ما، لم يحظَ سوى بضع مئات بفرصة تنفُّس بعض الهواء النقي خارج هذا السجن المفتوح.

جدير بالذكر أنه بين حزيران/يونيو ٢٠٠٧ وتموز/يناير ٢٠٠٩ توفي ٣٤٦ شخصاً بسبب الافتقار إلى العناية الطبية الكافية داخل قطاع غزَّة. هؤلاء المرضى كانوا يحملون الأوراق الرسمية التي تخوّلهم الدخول إلى مشافٍ أفضل تجهيزاً في الغرب، لكن إسرائيل، بالاعتماد

على التواطؤ المصري، حكمت عليهم بالموت بسبب انتظارهم خلف الحدود المغلقة من دون جدوى. لقد أدين الأحياء والأموات لذنبهم الوحيد، ألا وهو اختيارهم لحكومة من خلال انتخابات ديمقراطية وعدم استسلامهم لمضطهِديهم المسلّحين.

حافظوا على إنسانيتكم!

جرائم حرب في غزّة

٣ آب/أغسطس ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

«درّبنا الفتيان على كيفية إلقاء النار على الناس. لكن قادتهم لن يسمحوا لهم بكتابة كلمة Fuck على طائراتهم لأنها كلمة بذيئة!».

الكولونيل كيرتز – القيامة الآن

برّأ الجيش الإسرائيلي نفسه من أي جرم بعد أن امتثل لخمسة محققين داخليين توصلوا إلى النتيجة التالية: «التزم جيش الدفاع الإسرائيلي طوال فترة القتال في غزّة بالقوانين الدولية». وقد تمّ وصف عملية قتل المدنيين العزّل بأنها «أخطاء استخباراتية وإجرائية». رفضت منظمة العفو الدولية (أمنِستي) هذه الادعاءات لافتقارها إلى الصدقية، وأوضحت أن إسرائيل فشلت «بإجراء تحقيق مناسب في تصرفات قواتها في غزّة بما في ذلك «جرائم الحرب» ورفضت التعاون مع بعثة الأمم المتحدة المستقلة لتقصّي الحقائق.

اتهمت منظمة أمنِستي – في تقريرها حول عملية الرصاص المصبوب الذي صدر في تموز/يوليو من عام ٢٠٠٩ – إسرائيل بارتكاب جرائم حرب منذ اللحظة الأولى التي استخدمت فيها أسلحة ميدانية ضد السكان المدنيين المحاصرين في غزّة الذين افتقروا إلى أية وسيلة للفرار[١٣]. ويكشف التقرير بأن حجم وكثافة الهجمات على

(١٣) منظمة العفو الدولية (أمنستي)، عملية الرصاص المصبوب: ٢٢ يوماً من الموت والدمار (لندن: منظمة أمنستي الدولية، تموز/يوليو ٢٠٠٩).

غزَّة «لم يسبق لهما مثيل». وأكّدت الإحصائيات التي قامت بها وزارة الصحة في حكومة حماس التي رصدت «قتل ٣٠٠ طفل وأن مئات من المواطنين منزوعي السلاح والذين لم يكن لهم دور في النزاع كانوا من بين الـ ١٤٠٠ شخص الذين قتلتهم القوات الإسرائيلية». ووجدت أمنستي أن:

> لم يصب ضحايا الهجمات التي حققت فيها الوزارة في تبادل إطلاق النار خلال المعارك بين المجموعات الفلسطينية المسلحة والقوات الإسرائيلية، ولا كانوا دروعاً للمقاتلين أو للتجهيزات العسكرية، بل قتل العديد منهم عندما قصفت منازلهم بالقنابل وهم نيام. وقتل الآخرون وهم جالسون في باحات منازلهم أو يضعون الملابس المعدّة للغسيل على الرف. أما الأطفال فقد أصيبوا بينما كانوا يلعبون في غرف النوم أو على الأسطح أو أمام منازلهم. كما هوجم المسعفون وسيارات الإسعاف مرات عديدة عندما كانوا يحاولون إنقاذ الجرحى أو إخلاء الموتى.

واكتشف المحققون التابعون لمنظمة أمنستي أن أغلب الضحايا قد قتلوا «بأسلحة ذات دقة عالية اعتمد مطلقوها على مراقبة الطائرات دون طيار المزودة بمناظير ذات جودة استثنائية تسمح للمراقبين برؤية أهدافهم بكل تفاصيلها». يدحض هذا التقرير مزاعم الحكومة الإسرائيلية التي تدّعي أن وفاة المدنيين جاء نتيجة «أضرار غير مباشرة».

يدين التقرير أيضاً استخدام الفوسفور الأبيض الذي، على عكس الأسلحة الأخرى، يطلق من دون براعة ومن دون مراعاة لدقة الإصابة. وهو من الأسلحة «التي يجب ألا تستخدم في مناطق كثيفة السكان» مثل قطاع غزَّة ذي الكثافة السكانية العالية التي تصل إلى ٣٩٤٥,٤ نسمة في

الكيلومتر المربع الواحد، مما يجعله يعتبر أكثر المناطق كثافة بالسكان على وجه الكرة الأرضية.

قبل تدخّل منظمة أمنستي كان تقرير (مطر النار) لمنظمة هيومان رايتس ووتش أول تقرير يلقي الضوء على جرائم الحرب الإسرائيلية[١٤]. ومرة أخرى، كان أكثر ما تم التركيز عليه هو استخدام سلاح الفوسفور الأبيض. وأكّدت المنظمات غير الحكومية أن الجيش الإسرائيلي كان على دراية كبيرة بمواصفات المواد المستخدمة وبإمكانياتها الهائلة على حرق أي شيء تلامسه حرقاً تاماً إلى أن تخمد من تلقاء نفسها. أما بالنسبة إلى تأثيرها على الكائنات الحية، فيمكن هذه الأسلحة أن توقع أضراراً خطيرة بالأعضاء الداخلية. وعند إطلاق قذائف الفوسفور الأبيض المعروفة أيضاً بـ(إم ٨٢٥ مقذوفات دخانية ١٥٥مم) تنطلق من القذيفة ١١٦ جزيئة من الفوسفور المتوهج التي يمكنها أن تغطي منطقة نصف قطرها ١٢٥ متراً. يقول تقرير منظمة هيومان رايتس ووتش: «إن الاستخدام المتكرر للفوسفور الأبيض الذي ينفجر في الجو في المناطق المأهولة بالسكان يكشف عن نمط، أو سياسة، تتعمد استخدامه أكثر من الادعاء بالاستخدام العرَضي أو غير المتعمد». وتبعاً لدليل المستخدم الخاص به، فإن ذخائر الفوسفور الأبيض تستخدم لخلق ستارة دخانية تمكّن الجنود من أن يتحركوا خلفها من دون أن تتم رؤيتهم. على أية حال يوثق التقرير لحالات «ظهرت فيها قيمة الفوسفور الأبيض العسكرية الذي أطلق ليقوم بوظيفة ستار مساعد على الاختفاء بدرجة أقل أهمية إذا ما أخذنا بالاعتبار عدم وجود القوات الإسرائيلية

---

(١٤) منظمة هيومن رايتس ووتش، مطر النار: استخدام إسرائيل غير القانوني للفوسفور الأبيض (نيويورك: هيومن رايتس ووتش، آذار/ مارس ٢٠٠٩).

في الجوار لحظة إطلاقه. وبالمقارنة، فإن الضرر المتوقع الذي يصيب المدنيين والممتلكات جراء استخدام الفوسفور الأبيض كان كبيراً في الغالب، وبالتالي هو انتهاك غير متكافئ لقوانين الحرب».

يجدر بالذكر أنه خلال المجزرة رفع الصليب الأحمر الدولي صوته بالاحتجاج على انتهاكات حقوق الإنسان في ما يخص الجرحى الفلسطينيين والطاقم الطبي. حتى داخل إسرائيل اتهمت المنظمات الحقوقية ولا سيما «منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان» عملية الرصاص المصبوب بانتهاكاتها القانون الدولي لحقوق الإنسان و«رمز الجيش الإسرائيلي الأخلاقي»... [في ما يتعلق بـ]: الهيئات الطبية والإضرار بالمنشآت الطبية والهجوم العشوائي على المدنيين غير المشاركين في القتال. ويختم تقرير (منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان) المسمى الأخلاقيات الثلاث بأن: «الجيش الإسرائيلي عرقل الإخلاء الطبي الطارئ للمرضى وحرّمه على الجرحى...، وعرقل مساعي إخلاء الجرحى المدنيين والعائلات العالقة،... [و] تصرّف الجنود بطريقة [التواقين إلى إطلاق النار] عبر استهداف سيارات الإسعاف والتجهيزات والطواقم الطبية»[١٥]. حيث توفي على وجه الدقة ١٦ شخصاً من أفراد الطاقم الطبي الفلسطيني في المعارك وجرح ٢٥ آخرون عندما حاولوا تقديم المساعدة للمدنيين.

وبالرغم من استمرار وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود باراك بإطلاق لقب «الجيش الأكثر أخلاقية في العالم» على الجيش الإسرائيلي، إلا

(١٥) دان ماجين، «الأخلاقيات الثلاث»: الانتهاكات الخطيرة لحق الحصول على الرعاية الطبية خلال الهجوم الإسرائيلي على غزّة (تل أبيب: منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان، آذار/ مارس ٢٠٠٩).

أن إسرائيل رفضت التعاون مع لجنة تقصّي الحقائق التي شكّلها مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة والتي يرأسها ريتشارد غولدستون. وقد حدد الأخير بوضوح بأنه ينوي التحقيق في الانتهاكات ضد القانون الدولي لحقوق الإنسان التي قام بها كل أولئك المتورطين في الصراع الذي حصل في غزَّة وجنوب إسرائيل. يجب ألا يفاجَأ أحدٌ كثيراً برفض إسرائيل المشاركة في التحقيق. ولأن «الديمقراطية الحقيقية الوحيدة» قد وضعت جيشها موضع محاكمة بسبب جرائم الحرب التي اقترفها، فإن إسرائيل تبرهن المرة تلو الأخرى أنها لم تصبح بعد ديمقراطية حقة(١٦).

ينشط الآن في جنوب تل أبيب مركز «أدف» للطباعة على القماش في بيع قمصان مكتوب عليها المصطلحات الشائعة مثل: «استخدم دوريكس لأنه الأفضل» تبرز صورة طفل فلسطيني مقتول وأمه تنتحب فوق جثته، أو شعار «قتيلين بطلقة واحدة»، مرفق بصورة امرأة فلسطينية حبلى تظهر من خلال جهاز تسديد بندقية(١٧). في هذه الأثناء، تؤثر الآن روايات شهود العيان حول الجنود الإسرائيليين المشاركين في عملية الرصاص المصبوب على الرأي العام. حيث تعطي عشرات القصص المرعبة التي يسردها طلاب أكاديمية إسحاق رابين لما قبل خدمة الجيش، إحساساً «بالمبادئ الأخلاقية العالية» التي لدى الجيش الإسرائيلي:

---

(١٦) التقرير في شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٩ وكان شديد اللهجة تجاه إسرائيل. وقد وجد أن عملية الرصاص المصبوب كانت «هجوما متعمداً بين أطراف غير متكافئة» وقد حصلت خروقات لمعاهدة جنيف، متضمناً «مسؤوليات فردية عن الجرائم المرتكبة».

(١٧) أوري بلو، «القتل للرضّع الفلسطينيين وللمساجد القصف - موضة الجيش الإسرائيلي لعام ٢٠٠٩» هآرتس، ١٨ آب/ أغسطس ٢٠٠٩.

قال جندي: «كان يوجد منزل ويداخله عائلة... وضعناهم جميعاً في غرفة. تركنا المنزل في ما بعد لتحلّ فصيلة أخرى محلّنا، وبعد عدة أيام وصلنا أمر بتحرير العائلة. اتخذت الفصيلة مواقعها في الطابق العلوي. وتموضع قنّاص على السطح.

سمح آمر الفصيلة للعائلة بالذهاب وأبلغهم بأن يتوجهوا يميناً. لم تفهم الأم ولا طفلاها ما قاله، فتوجهوا يساراً، نسي أفراد الفصيلة أن يبلغوا القناص حادّ التصويب الذي على السطح أنهم قد سمحوا لهم بالخروج، وأن كل شيء على ما يرام، وأن عليه ألا يطلق النار فقام... قام بما هو مفترض أن يقوم به، كما يقوم بتنفيذ الأوامر المعطاة له».

وتبعاً لقائد الفصيلة: «رأى القناص امرأة وأطفالاً يقتربون منه على مسافة أقرب من المسموح بها. فما كان منه إلا أن أطلق النار عليهم مباشرة. على أية حال، ما حصل هو أنه في النهاية قد قام بقتلهم».

«لا أعتقد أنه شعر بأي سوء لقتلهم لأنه بعد كل شيء، مهما كانت درجة تأثره فإنه قد أدى عمله تبعاً للأوامر التي أعطيت له. ومن الجوّ العام في العموم، حسب استنتاجي من معظم الرجال الذين تحدثت معهم... لا أدري كيف أشرحها... فإن حياة الفلسطينيين، دعني أقول، هي شيء، أقل أهمية بكثير الكثير من حياة جنودنا. لذلك بقدر ما يكون الجنود مكترثين بما فعلوه بقدر ما يمكنهم تبرير فعلتهم»، ختم الجندي.

روى قائد فصيلة أخرى من اللواء ذاته حادثة حول قيام قائد سرية بإعطاء الأوامر بإطلاق النار على امرأة فلسطينية مسنّة وقتلها بينما كانت تمر على طريق يبعد ١٠٠ متر من منزل استولت عليه السرية.

قال قائد الفصيلة إنه وافق قائده الرأي في شأن الأحكام القضائية

المتساهلة التي تتعلق بالمسؤوليات والتي تسمح بإخلاء المنازل من سكانها عبر إطلاق النار من دون أي إنذار مسبق. بعد تغيّر تلك الأوامر تذمّر جنود قائد هذه الفصيلة من ذلك وقالوا: «علينا قتل الجميع هناك [في مركز غزّة] لأن كل شخص هو إرهابي»[١٨].

كانت الأحكام القضائية على سبيل المثال مرنة جداً في تطبيقها ومشحونة بالكراهية الشديدة وبعبادة التفوق العسكري والإجحاف الذي يعتبر جميع الفلسطينيين إرهابيين.

فضلاً عن حالات إطلاق النار على المدنيين من دون إنذار، شرح الضابط حوادث عن كيفية التخريب داخل منازل الفلسطينيين: «كان يتم ذلك عبر كتابة عبارة (الموت للعرب) على الجدران وسرقة صورهم العائلية والبصاق عليهم ليس لسبب سوى أنك تستطيع فعل ذلك. أعتقد أن هذا هو الهدف الأساسي: من أجل فهم الدرجة التي انحدر إليها الجيش الإسرائيلي في عالم الأخلاق. إنه الشيء الذي سأتذكره ما حييت»[١٩].

أدارت الحكومة الإسرائيلية العين العمياء إلى الجدل الذي أحدثته هذه الشهادات متحدثة عن بضعة «خراف سود» في حقل من الحملان البيضاء البريئة. إنه نفس البحث عن كبش فداء. من غوانتانامو إلى أبو غريب، انتهى البحث عند أنقاض مدينة غزّة المسيّجة.

حافظوا على إنسانيتكم!

---

(١٨) عاموس هارئيل: الجيش الإسرائيلي في غزّة: قتل المدنيين وتدمير الممتلكات، وتساهل بالأحكام القضائية تجاه المدنيين. هآرتس، ١٩ آذار/ مارس ٢٠٠٩.

(١٩) عاموس هاريل، «إطلاق النار ثم البكاء» هآرتس، ٢٠ آذار/ مارس ٢٠٠٩.

فليجيئوا إلى غزّة

١٩ آب/أغسطس ٢٠٠٩

من: فيتوريو أريغوني

عندما تقابل الشر بالتسامح يصبح التسامح جريمة.

توماس مان

نجا الفلسطينيون الصامتون عندما تكلم فلسطينيون آخرون باسمهم في وقت يمكن ألا يتكلموا فيه باسم أنفسهم. والقلم الذي غُمِّسَ بالدم الذي يلاحق مصائرهم حمله عدوّ ماكر ومراوغ، عدوّ يقرر وقت فرض المعاناة على مليون ونصف المليون نسمة بالاعتماد على الطريقة التي سيتأرجح بها نوّاس الناخبين.

حتى الأطفال الصغار الموجودون هنا يعرفون أن المذبحة الأخيرة قد نفذت لأهداف انتخابية. وكان قتل أكثر من ١٤٠٠ شخص، ٨٥٪ منهم مدنيون، قد أحدث اندفاعاً مثيراً للعجب في تأييد الناخبين لإيهود أولمرت وتسيبي ليفني، بالرغم من أن ذلك لم يكن كافياً لهما كي يهزما بنيامين نتنياهو - هذا الرجل ذو برج هجومٍ مكان رأسه وجنازير دبابة مكان رجليه. منذ البداية كانت خطة عمل حكومة نتنياهو واضحة وضوح الكريستال، وتعتمد على توسيع المستوطنات في الضفة الغربية والدخول في حرب طويلة ومفتوحة ضد حماس. ولصدمة الدبلوماسيين الغربيين، فإن الدور الحساس لوزير الخارجية قد أنيط بأفيغدور ليبرمان رئيس حزب إسرائيل بيتنا. ولكونه لم يمثّل القوة السياسية الثالثة الكبيرة في الكنيست الإسرائيلي، قام خلال حملته الانتخابية تحضيراً لانتخابات

شباط/ فبراير ٢٠٠٩ بتقديم حجته المرعبة بأن قنبلة نووية يجب أن تلقى على غزَّة. ورأى خلال عملية الرصاص المصبوب أنه «علينا أن نستمر بقتال حماس تماماً مثلما فعلت الولايات المتحدة مع اليابانيين في الحرب العالمية الثانية»[٢٠]، وهو ما فسره العديد من المراقبين على أنه تلميح بقصف الأمريكيين لهيروشيما وناغازاكي بالقنابل الذرية عام ١٩٤٥، وذلك للضغط من أجل وضع حدّ للحرب العالمية الثانية. وفي أول كلمة له بعد تعيينه وزيراً للخارجية في نيسان/ أبريل أوضح ليبرمان رؤيته للسلام أو «تحمل» السلام كما يلي: «إذا اخترت السلام قم بتجهيز نفسك للحرب، كن قوياً». يمكن المرءَ أن يموت في غزَّة خلال بحثه عن الطريقة الأدق لوصف المشكلة، فالحق بيد القوي وكذلك السلام.

يستمر القادة السياسيون الغربيون بالانغماس في علاقات دبلوماسية لطيفة مع شخصيات من جنس أولمرت وليفني وباراك ونتنياهو وليبرمان الذين سيكون الحق كل الحق في الادعاء عليهم أمام أية محكمة دولية لانتهاكهم القانون الدولي. من جهة أخرى، لن يتحدث أي منهم إلى حماس، فهؤلاء يجب مقاطعتهم ومعهم مليون ونصف المليون فلسطيني ويجب أيضاً معاقبتهم لاختيارهم حماس في انتخابات ديمقراطية. استمررتُ أنا ورفاقي في حركة التضامن الدولية في الاحتجاج السلمي اللاعنفي دعماً للسكان المدنيين الذي يعانون الاختناق جراء الحصار الإجرامي. في هذه الأثناء أبلغت إسرائيل العالم بالهدنة التي لم تدخل حيّز التنفيذ: في غزَّة تستمر عملية الرصاص المصبوب على فترات زمنية منتظمة بكل تفاصيلها ما عدا اسمها.

---

(٢٠) أ.ف.ب، «عاملوا حماس مثل معاملة اليابان في الحرب العالمية الثانية: قائد اسرائيل الوطني»، ١٣ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩.

يتواصل قصف الأنفاق في رفح بشكل متقطع فتنهار دافنةً داخلها المنقّبين. ويوجّه القنّاصة طلقاتهم إلى المزارعين الذين يعملون في حقولهم على طول الحدود. حيث أعلنت إسرائيل بعد القصف عن إقامة منطقة أمنية عازلة بعرض كيلومتر خلف حدودها مع قطاع غزَّة، أي بكلمات أخرى، في المناطق الفلسطينية، وأصبحت الآن منطقة عسكرية يحظر الدخول إليها. من الواضح أن هذا العمل غير شرعي وفرض كامل للاستبداد. أرجو أن تتخيلوا ماذا يعني حزامٌ بعرض كيلومتر محدد في نقاط معينة في قطاع من الأرض مثل غزَّة لا يتجاوز عرضه ستة كيلومترات أو أقل بقليل. ويعيش داخل هذه الكيلومترات الستة آلاف الأشخاص الذين لا يرغبون بشيء سوى زراعة أراضيهم لتزوّدهم بكل بساطة ببعض المنتجات كي يأكلوها. وكأن إطلاق الرصاص على المدنيين العزل لم يكن كافياً للجنود لتسلية أنفسهم، فقاموا بممارسة ولعهم بإشعال الحرائق أيضاً. فعبروا الحدود وأضرموا النار في الحقول المزروعة بالحنطة والشعير، هذه المحاصيل هي المصدر الوحيد لمعيشة مئات العائلات.

أستيقظُ كل صباح في شقتي المقابلة للمرفأ على صوت طلقات مدفعية من البحرية الإسرائيلية تهدف لمنع مراكب الصيد الفلسطينية البدائية من الإبحار أكثر من ثلاثة أميال في عرض البحر. إن هذا تقييد آخر غير شرعي وأحادي الجانب فرضته إسرائيل كشكل من أشكال العقاب الجماعي في خرق للمادة ٣٣ من معاهدة جنيف الرابعة. وكان قد اختطف ٣٠ صياداً في الأشهر الأربعة الأخيرة واقتيدوا إلى إسرائيل حيث تمت مصادرة مراكبهم. قتل منذ ١٨ كانون الثاني/ يناير ٢٥ فلسطينياً بينهم العديد من الصيادين والمزارعين. ولم يسجل في الفترة عينها وقوع أية إصابات أخرى في الجانب الإسرائيلي حتى عند إطلاق بعض

صواريخ القسّام في مناسبات معينة. إن منع الصيد والأعمال الزراعية وتدمير أنظمة الري واقتلاع الغِراس والنباتات وتدمير عشرات وعشرات الهكتارات من المحاصيل، وأخيراً إطلاق النار على صيّادي السمك والمزارعين، هو كله جزء من القمع الممنهج ضد الشعب الفلسطيني. ويعتبر سبيلاً للمسك بخناق الاقتصاد من أجل إفقار السكان وإيصالهم إلى حدّ يصبحون فيه مجبَرين على العيش على المساعدات الإنسانية.

يصل بعض الشبان إلى مرحلة يصبحون معها غير قادرين على متابعة العيش من دون كرامة تحت الحصار اللا إنساني، ويناضلون لكسب عيشهم لإعالة أنفسهم وعائلاتهم. وربما يكون الإسرائيليون قد قتلوا آباء هؤلاء الشبان أو اخوتهم في الحقول أو في البحر. لذلك لا يكون منهم سوى أن ينتسبوا إلى إحدى الفرق العسكرية وإطلاق بعض الصواريخ المصنوعة منزلياً تجاه إسرائيل، فقط ليثبتوا كم من البطولة أن يقاتل الإنسان من أجل شعبه، ربما محاولين إقناع أنفسهم بهذه البطولة أكثر من إقناع عدوّهم!

لم تحتجّ أية دولة غربية بشدة ضد هذا الحصار المفروض لتنفيذ الإبادة الجماعية الذي كتب على غزَّة تحمّله، حتى إنه بسبب هذه الصواريخ التي تطلق بشكل عشوائي والتي دائماً لا يسبّب معظمها أي ضرر، فإن الحكومات الأوروبية والأمريكية على استعداد أن تسبغ الشرعية على مذبحة مثل المذبحة الأخيرة التي فُرضت على غزَّة. إننا جميعاً مدركون تماماً، ومثلما هو معروف لدى الجميع في تل أبيب، أنه لو أتيح للمزارعين والصيادين الفلسطينيين العيش والعمل بالطريقة ذاتها التي يعيش فيها أقرانهم الإسرائيليون، فتقريباً لن يكون لأحد هنا الرغبة في إطلاق صواريخ القسام ضد سديروت أو عسقلان. لكن الجيش

الإسرائيلي يستمر في التأكيد أن ثمن مجرد العيش والعمل في غزَّة يجب أن يبقى باهظاً جداً. أمّا التغيير الذي أوصل رفعُ شعارِه الرئيسَ باراك أوباما إلى البيت الأبيض فلم يتحقق على أرض الواقع. حتى إن أحداً من الإدارة الأمريكية الجديدة لم يتنازل بالقيام بزيارة غزَّة حتى الآن. فأنت لا تستطيع تغيير الواقع في الشرق الأوسط إذا لم تكن لديك النية بالتعرف عليه بشكل حقيقي وفهمه فهماً كاملاً. إن هذا التقصير يؤرّقني ويسرق النوم من عينيّ.

ألقى جون كينيدي مرة خطاباً شهيراً في برلين الغربية عام ١٩٦٣ قال فيه: «منذ ألفي عام كانت مفخرة المفاخر التصريح: «أنا أنتمي إلى الحضارة الرومانية» أما اليوم في عالم الحريات، فإن مفخرة المفاخر هي التصريح: «أنا برليني» وأضاف:

«هنالك العديد من الناس حول العالم ممن لا يفهمون بحق، أو لنقل لا يريدون أن يفهموا، المشكلة الكبرى بين العالم الحر والعالم الشيوعي. فليجيئوا إلى برلين. هنالك العديد ممن يقولون إن الشيوعية هي موجة المستقبل. فليجيئوا إلى برلين. وهنالك العديد في أوروبا وأماكن أخرى ممن يقولون إنه يمكننا أن نعمل مع الشيوعيين. فليجيئوا إلى برلين. حتى إنه يوجد القليلون ممن يقولون صحيح أن الشيوعية هي نظام شرير، لكنها تسمح لنا بتحقيق تقدم اقتصادي. فليجيئوا إلى برلين».

وكما اقترحت المدوّنة الإيطالية ميلينا سبيغاجليا فإنه يمكن إعادة صوغ خطاب كينيدي ذاك وإعادة كتابته كالتالي ليناسب الحصار المفروض على غزَّة هذه الأيام:

هنالك العديد من الناس حول العالم ممن لا يستطيعون فهم، أو

يدّعـون أنهم لا يفهمون ما هي المشـكلة بين فلسـطين وإسـرائيل.
فليجيئوا إلى غزَّة. البعض يقولون إن إسـرائيل هي قوة المسـتقبل.
فليجيئـوا إلـى غزَّة. يدّعي آخـرون، في أوروبا وفـي أماكن أخرى،
أنه يمكننا أن نتعاون مع الإسـرائيليين. فليجيئـوا إلى غزَّة. حتى إنه
يوجـد القليلون ممن يقولون: صحيح إن إسـرائيل هي شـرّ، لكنها
تسمح بتحقيق تقدم اقتصادي. فليجيئوا إلى غزَّة!

ومن تحت طبقات الدمار والركام، تتلألأ غزَّة مثل أيقونة، وفي الوقت عينه، تنتصب مثل علامة على العار. وهي بالنسبة إلى أولئك الذين تقاسموا مثلي المحن التي لاقاها سكانها بكل طيب خاطر وودّ، لدرجة أصبحوا فيها مواطنين غزاوين وبعدها، نتيجة لذلك، سجناء فاقدين لأي سبيل للخروج، تعتبر غزَّة رمزاً للمقاومة الدائمة ضد جبروت الطغيان. وبدل داوود الصغير الذي وقف بمقلاعه ضد جالوت الجبار يقف أحمد بمقلاعه ضد جالوت الجديد الذي يتحدث العبرية والذي يلوّح له بقنبلة الفوسفور الأبيض وقنبلة الديم (DIME) مقابل ذلك المقلاع. إن غزَّة هي كناية عن الإنسانية التي لا تريد أن تغرب شمسها في صمت وعار هؤلاء الذين للتّو تركوا أنفسهم تنحدر نحو الانقراض. وغزَّة لم تصبح بعد كلها أرضاً لشواهد القبور المتهدمة، بل لا تزال تضجّ ببشر قلوبهم مثل الجبال التي تشخص نظراتها الغامضة نحو مستقبل مجهول.

حافظوا على إنسانيتكم!

التسلسل الزمني

١٩٤٨-١٩٤٩ - النكبة/ حرب إسرائيل «من أجل الاستقلال».

- رسم حدود قطاع غزَّة الحالية، ووضع القطاع تحت الوصاية المصرية.

١٩٦٤ - تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية.

١٩٦٧ - حرب الأيام الستة.

- القوات الإسرائيلية تحتل غزَّة.

١٩٦٩ - ياسر عرفات يصبح رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

١٩٨٧ - تأسيس حركة حماس.

- اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى.

١٩٩٣ - نهاية الانتفاضة الأولى.

١٩٩٤ - السلطة الفلسطينية تبسط سيطرتها على قطاع غزَّة عملاً باتفاق أوسلو.

- الشروع في إقامة المنطقة العازلة بين إسرائيل وقطاع غزَّة.

٢٠٠٠ - اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية.

٢٠٠٤ - اغتيال قائدَي حماس أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي.

- وفاة ياسر عرفات

٢٠٠٥ - إسرائيل تقوم بتفكيك المستوطنات في قطاع غزَّة وتُبقي سيطرتها على الحدود.

٢٠٠٦ - فوز حماس بأكثر من نصف المقاعد في الانتخابات البرلمانية الفلسطينية.

- واشتداد الصراع بين إسرائيل وقطاع غزَّة.

٢٠٠٧ - اندلاع النزاع بين فتح وحماس.

- سيطرة فتح على الضفة الغربية وحماس على قطاع غزَّة.

- السلطة الفلسطينية تعلن حالة الطوارئ.

- إسرائيل تعلن غزَّة «كياناً معادياً».

- إغلاق حدود قطاع غزَّة، وإسرائيل تفرض حصاراً اقتصادياً عليه.

٢٠٠٨ - تكثيف الصراع بين إسرائيل وقطاع غزَّة.

- ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر: إسرائيل تشن هجوماً على قطاع غزَّة بالطائرات والغارات الجوية.

- ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر: غارات جوية على جامعة غزَّة وهجوم على قارب الكرامة.

٢٠٠٩ - كانون الثاني/ يناير: دخول القوات البرية الإسرائيلية إلى قطاع غزَّة.

- ٦ كانون الثاني/ يناير: قصف مدرسة تابعة للأونروا.

- ١٨ كانون الثاني/ يناير: إسرائيل تعلن وقف إطلاق النار من جانب واحد.

- ٢١ كانون الثاني/ يناير: إسرائيل تدّعي قيامها بانسحاب عسكري كامل.

- ٥ تشرين الأول/ أكتوبر: الجمعية العامّة التابعة للأمم المتحدة تصوّت على إحالة إسرائيل وحماس إلى محكمة الجنايات الدولية لارتكابهما جرائم حرب.

المذكرة التوثيقية

غزَّة

بطول ٤٠ كيلومتراً وعرض ١٠ كيلومترات وعدد سكان يقدر بمليون ونصف المليون نسمة، يعتبر قطاع غزَّة واحداً من أكثف المناطق السكانية في العالم. بقيت حدوده ثابتةً بعد الصراع العربي الإسرائيلي بين عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩. وبقي لمدة ١٩ عاماً تحت الإدارة المصرية إلى أن احتلته إسرائيل عام ١٩٦٧ عقب حرب الأيام الستة. في العام ١٩٩٤ وبعد اتفاق أوسلو، أصبح تحت سيطرة السلطة الفلسطينية. وبينما أعلنت إسرائيل تفكيك مستوطناتها من القطاع عام ٢٠٠٥ أبقت سيطرتها على حدود غزَّة البرية والبحرية على حدودها مع مصر. وقد أحيطت حدود غزَّة البرية بحزام أمني شيدته إسرائيل بين عامي ١٩٩٤ و٢٠٠٤ لفصل القطاع عن مصر وإسرائيل. وللقطاع ثلاثة معابر أساسية: معبر إيريتس في الشمال ويستخدم كممر من وإلى إسرائيل، ومعبر الكرني في الشرق يستخدم لعبور الشاحنات، ومعبر رفح في الجنوب يصل القطاع بمصر.

الأونروا

عقب نهاية الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، أوجدت الأمم المتحدة منظمة الأونروا بالقرار رقم ٣٠٢ تاريخ ٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩ كوكالة لغوث ٤,٦ مليون لاجئ فلسطيني في الشرق الأوسط. من بين هؤلاء يعيش ٤٧٨,٢٧٢ لاجئ فلسطيني في ثمانية مخيمات للاجئين وهي: مخيم جباليا ورفح والشاطئ والنصيرات وخان يونس

والبريج والمغازي ودير البلح. تعاني هذه المخيمات شدّة الازدحام، حيث يعيش في مخيم الشاطئ وحده في منطقة مساحتها كيلو متر مربع واحد ٨٠,٠٠٠ شخص وهو العدد المساوي لعدد السكان الفلسطينيين في كامل قطاع غزَّة قبل النكبة. ومنذ تشييده عملت الأونروا على إقامة ١٨٧ مدرسة فيه و١٨ عيادة، وقدمت الدعم لـ ٨٦٩,٧١ لاجئاً صُنّفوا على أنهم في حالة عَوَز شديد.

النكبة

وهي الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، وقعت بين عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩. وهي بالنسبة إلى إسرائيل معروفة بـ«حرب الاستقلال»، أما بالنسبة إلى الفلسطينيين فهي النكبة، أي المأساة. وقد اقتُلع على إثرها بين ٦٥٠,٠٠٠ و٨٠٠,٠٠٠ فلسطيني من منازلهم وأصبحوا لاجئين. وينقسم الأكاديميون حول سبب هذا النزوح، لكن المؤرخين الإسرائيليين الجدد يؤيدون الحقيقة التي (على الأقل في جزء منها) تقول إنها وقعت بسبب عمليات التطهير العرقي المُثبَتة التي قامت بها ميليشيات يهودية.

منظمة التحرير الفلسطينية

منظمة سياسية وبرلمانية تأسست عام ١٩٦٤، اعترفت بها ١٠٠ دولة، بما فيها إسرائيل عام ١٩٩٣، كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني. إنها تحالف بين أكبر المجموعات الفلسطينية العلمانية التي تلتزم التحرر الوطني للفلسطينيين. أما أكبر تنظيماتها فهو حركة فتح التي تعتبر يسارية ووطنية التوجه. برزت المنظمة بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ وقادت حرب عصابات طويلة ضد إسرائيل منذ تأسيسها في الستينيات وحتى الدخول في مفاوضات السلام في تسعينيات القرن الماضي. وقد بقيت تحت قيادة ياسر عرفات منذ عام ١٩٦٩ حتى وفاته عام ٢٠٠٤.

الانتفاضة الأولى

انتفاضة استمرت من عام ١٩٨٧ حتى عام ١٩٩٣ وقامت ضد سيطرة إسرائيل على المناطق الفلسطينية. حيث اندلعت في مخيم جباليا للاجئين وسرعان ما انتشرت في كل أنحاء قطاع غزَّة وشرق القدس والضفة الغربية. وتضمنت عصيانا مدنياً وإضرابات ومقاطعة للبضائع الإسرائيلية والامتناع عن دفع الضرائب وإقامة الحواجز والمظاهرات التي يتخللها قذف الحجارة، يقوم بها الفتيان الفلسطينيون. كما شهدت مواجهات عنيفة رداً على عنف الجنود والمدنيين الإسرائيليين. قتلت القوات الإسرائيلية أكثر من ١٠٠٠ فلسطيني خلالها، بينما قتل الفلسطينيون ١٦٠ إسرائيلياً، في حين قتل حوالى ١٠٠٠ فلسطيني في نزاعات داخلية.

حماس

حركة المقاومة الإسلامية، تأسست في غزَّة عام ١٩٨٧ في بداية الانتفاضة الأولى. وترجع جذورها إلى الجناح الفلسطيني لحركة الإخوان المسلمين المصرية. هدفها القريب هو إخراج القوات الإسرائيلية خارج الأراضي الفلسطينية المحتلة. أما هدفها البعيد، كما جاء في ميثاقها، فهو إقامة دولة إسلامية على كامل أرض فلسطين التاريخية بما فيها ما يعرف بدولة إسرائيل. ولسنوات عديدة تضمّنت نشاطاتها أعمالاً اجتماعية مثل إقامة مدارس ومستشفيات ومعاهد دينية وتضمّنت عمليات عسكرية نفّذتها ذراعها العسكرية المسمّاة ألوية عز الدين القسام. برزت حماس منذ عام ٢٠٠٦ كمنافس أساسي لمنظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح منذ تحقيقها الفوز في انتخابات السلطة الوطنية الفلسطينية الشرعية وخاصة في غزَّة.

الانتفاضة الثانية

الانتفاضة الثانية، وعرفت أيضاً بانتفاضة الأقصى. اندلعت في أيلول/ سبتمبر من عام ٢٠٠٠ تخللها كالانتفاضة الأولى عصيان مدني وأعمالٌ شبه عسكرية. منذ اندلاعها حتى نيسان/ أبريل عام ٢٠٠٨ قتل خلالها ما يقدر بـ ٥٥٠٠ فلسطيني وأكثر من ١٠٠٠ إسرائيلي، بينما قتل في الفترة نفسها ٥٥٠ فلسطينياً في نزاعات داخلية.

إخلاء غزَّة

بدأ الجيش الإسرائيلي في صيف العام ٢٠٠٥ بتنفيذ خطة أعلنها رئيس الوزراء الإسرائيلي أريئيل شارون قبل سنة. وتم بموجب تلك الخطة سحب الجنود والمستوطنين الإسرائيليين من القطاع. وقد أطلق شارون على الخطة تسمية «خطة الفصل» كتسمية أولية، ثم أعيد تسميتها لتصبح «خطة فك الارتباط» وذلك منعاً لإثارة ذكريات نظام الفصل العنصري (الأبارتيد) في جنوب إفريقيا. وقد تم بين ١٧ تموز/ يوليو و١٢ أيلول/ سبتمبر إخلاء ٨٠٠٠ مستوطن كانوا يحتلون ٢١ مستوطنة. عندها قامت أجهزة الدعاية التابعة لحركة حماس بالتفاخر بالانسحاب الإسرائيلي على أنه انتصار للمقاومة. وعلّق دوف ويسغلاس مدير مكتب رئيس مجلس الوزراء الإسرائيلي في مقابلة معه بأن «خطة فك الارتباط» هي في الواقع غاز عديم اللون نافذ الرائحة. إنها تعوّض كمية هذا الغاز الضروري، لذلك لن يكون هنالك ضرورة للعملية السياسية مع الفلسطينيين»[٢١].

---

(٢١) أوري شافيت، الجمود الكبير، هآرتس، ٨ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤.

لكنها لم تكن نهاية الاحتلال

تبعاً لتل أبيب، فإنه منذ اللحظة التي سحبت فيها إسرائيل قواتها ومستوطنيها لم تعد تحتلّ غزَّة، وعليه فهي لا تتحمل أية مسؤولية مباشرة تجاه سكان القطاع. على أية حال، فإن المسألة لا تجري على هذه الشاكلة تبعاً للقانون الدولي. فكل المعابر الحدودية، ما عدا معبر رفح، من دون أن نذكر المجال الجوي لغزَّة والحدود البحرية، لا تزال تحت السيطرة الإسرائيلية، ولذلك فإسرائيل ما زالت تقيد التجارة وحرية الحركة إلى الخارج. وتنصّ «خطة فك الارتباط» على أن «إسرائيل سوف تُحكِم وحدها قبضتها على المجال الجوي لغزَّة وسوف تستمر بتنفيذ أعمال عسكرية في مياه قطاع غزَّة».

صواريخ القسام

منذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية بدأت الفصائل الفلسطينية في غزَّة تطلق صواريخ القسام على البلدات الإسرائيلية المجاورة وخاصة سديروت التي لا تبعد سوى كيلومتر واحد عن قطاع غزَّة. إنها صواريخ بسيطة بطول مترين تصنع في غزَّة من أنابيب معدنية تُملأ بالمتفجرات التي تصنع منزلياً. وبينما تعتبر سهلة النقل من مركز إطلاق إلى آخر، فإنه لا يمكن توجيه مسارها، وتغطي مجالاً يتراوح بين ٣ إلى ١٠ كيلومترات. خلال عملية الرصاص المصبوب أطلقت أيضاً بضعة صواريخ روسية الصنع من نوع الغراد. وقتل حتى الآن ١٥ إسرائيلياً بفعل هذه الصواريخ البدائية.

الاستهداف بالاغتيالات

تبنّت إسرائيل منذ زمن طويل سياسة الاغتيالات ضد من تعتبرهم يشكّلون تهديداً لأمنها. ومع الانتفاضة الثانية اعتماداً على هذه الوسيلة

أصبح الاستخدام الفعال للقوة الجوية والمستعربين في ازدياد. كان من بين أبرز من استهدفتهم بسياستها تلك، مؤسسا حركة حماس الشيخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي اللذين قتلا في سنة ٢٠٠٤. وتبعاً لمنظمات حقوق الإنسان، فإن عشرات من المدنيين قد قتلوا خلال عمليات الاغتيال غير الدقيقة في استهدافاتها، وهو أمر شجبه الاتحاد الأوروبي، ووصفته الولايات المتحدة بأنه «غير مساعد في عملية السلام». في الثالث والعشرين من تموز/ يوليو عام ٢٠٠٢ ألقت القوات الجوية الإسرائيلية قنبلة زنة طن واحد على مبنى في غزَّة، لم تقتل يومها قائد ألوية عز الدين القسام، صلاح شحادة، فقط بل قتلت أيضاً ١٥ شخصاً آخر بينهم تسعة أطفال.

فوز حماس بالانتخابات

غالباً ما كانت تستخدم إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش في خطابها عبارة التحول الديمقراطي كجزء أساسي من استراتيجيتها للشرق الأوسط. وفي الوقت نفسه كانت التوليفة السحرية للفلسطينيين هي الانتخابات الحرة. وفي ٢٥ كانون الثاني/ يناير عام ٢٠٠٦ حققت حماس نصراً ساحقاً بفوزها بـ ٧٤ مقعداً في الانتخابات التشريعية على حركة فتح التي لم تفز سوى بـ ٤٥ مقعداً. إنها «ثورةٌ» تلك التي قلبت المشهد السياسي رأساً على عقب. ففي الانتخابات السابقة التي جرت قبل عقد فازت فتح بـ ٦٨ مقعداً من أصل ٨٨. غير أن فوز حماس أطلق الشرارة لنزاع بين الفريقين.

الصراع بين فتح وحماس

في شهر حزيران/يونيو سنة ٢٠٠٧، وبعد أشهر من الاتهامات المتبادلة والعداءات والاشتباكات المسلحة، قامت المجموعات المسلحة التابعة لحماس بمطاردة قيادة فتح السياسية والعسكرية التي يرأسها محمد دحلان، وبإخراجها خارج قطاع غزَّة. وكانت حماس قد اتهمت دحلان بالفساد، وبأنه رهن إشارة كل من الولايات المتحدة وإسرائيل. قام رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية محمود عباس في ١٤ حزيران/يونيو عام ٢٠٠٧ بإقالة حكومة الوحدة الوطنية وبطرد إسماعيل هنية التابع لحركة حماس، فأصبح أحد رئيسَي حكومة السلطة الفلسطينية. ومن ثم أحكمت فتح السيطرة على الضفة الغربية.

إسرائيل لا تضيّع الوقت

خفّضت الحكومة الإسرائيلية كمية الحاجيات الأساسية والمؤن المتجهة إلى قطاع غزَّة إلى الربع مقارنة بعام ٢٠٠٥. ولا (يرشح) إلى الداخل سوى المساعدات الإنسانية، في حين يشلّ الحظر الكامل المفروض على التصدير، الاقتصاد الفلسطيني. في هذه الفترة اعتقلت إسرائيل العشرات من نواب حماس. وبعد إطلاق صواريخ القسام المصنوعة منزلياً في ١٩ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٧، صنّفت الحكومة الإسرائيلية قطاع غزَّة «كياناً معادياً». عندها حذر الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون بأن هذا يتعارض مع التزامات إسرائيل تجاه «القانون الدولي (في شأن) حقوق الإنسان» في ما يخص السكان المدنيين في غزَّة.

استهداف المئات من المدنيين

الأرقام التي قدّمها جهاز الشين بيت في كانون الثاني/ يناير من عام ٢٠٠٨ تلقي ضوءاً مشؤوماً على ما جرى في قطاع غزَّة. فقد قتل ٨١٠ أشخاص في غزَّة في الفترة ما بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ وقد اتضح أن من بينهم ٢٠٠ شخص «لا ينتمون إلى أية منظمة إرهابية». أما صحيفة هآرتس فقد أحصت وجود ٣٦٠ مدنياً بين القتلى الـ٨١٦. بينما أوردت منظمة بتسيليم، منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية، في تقرير لها أن ١٥٢ قتيلاً كانوا في عمر أقل من ١٨ سنة، و٤٨ آخرين أقل من ١٤ سنة. أما وزير الأمن القومي، آفي ديتشر، فقد أعلن أن ٥٪ من مسلحي قطاع غزَّة قد قتلوا، مضيفاً أن عدد المسلحين يقدّر بحوالى ٢٠,٠٠٠ مسلّح. ولكن إذا أخذنا نسبة القتلى المدنيين المعلن عنها في الاعتبار، فهذا يعني أن التخلّص من بقية المقاتلين عن طريق الجيش والقوات الجوية الإسرائيلية سيعني أيضاً قتل أكثر من ٨٨٢٣ مدنياً معهم.

المذبحة

في سبيل الوقف الرسمي لإطلاق صواريخ القسام، التي كان أحد ضحاياها تلميذاً اسمه روني يتشيا من معهد سابير في مستوطنة سديروت، قتل في ٢٧ شباط/ فبراير عام ٢٠٠٨، قام الجيش والقوات الجوية الإسرائيلية بشنّ هجوم وحشي على قطاع غزَّة مخلّفاً ١٢٠ قتيلاً فلسطينياً. وتبعاً لمنظمة بتسيليم كان نصف القتلى من غير المقاتلين. وفي وقت كانت لا تزال فيه هذه المذبحة ماثلة ولم تجفّ دماء ضحاياها بعد، هدد نائب وزير الدفاع ماتان فيلناي بتنفيذ هولوكوست ضد قطاع غزَّة.

واحد من بين ثلاثة عاطل عن العمل

أورد تقرير للبنك الدولي صدر بتاريخ ٢٧ نيسان/ أبريل ٢٠٠٨ أن نسبة العاطلين عن العمل في غزَّة وصلت إلى ٣٣٪ (و٢٣٪ في الضفة الغربية). ومن المتوقع أن تزداد هذه النسبة بسبب تسريح العاملين في الصناعة. علاوة على ذلك، فإن ٣٥٪ من السكان يعيشون في حالة فقر مدقع، وبحرمانهم من أي مساعدة خارجية على شكل مؤن غذائية أو تحويلات مالية تصلهم من الفلسطينيين الذين يعملون في الخارج، فإن هذه النسبة ستزداد لتصل إلى ٦٧٪. وتوصل تقرير البنك الدولي إلى أن القيود التي تفرضها إسرائيل هي السبب الرئيس لتدهور اقتصاد القطاع. وللتغلب على الحصار والبقاء على قيد الحياة، قام الفلسطينيون بحفر عشرات الأنفاق التي تربط رفح بمصر ليمرّروا عبرها الطعام والدواء وعدداً من السلع التجارية، وبطبيعة الحال، الأسلحة. كذلك تقوم هذه الأنفاق بتهريب المرضى الذين بحاجة إلى معالجة ضرورية في مصر.

عملية الرصاص المصبوب

بدأت عملية الرصاص المصبوب بتاريخ ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨. قتل خلال العمليات الحربية التي استمرت ثلاثة أسابيع ١٢٨٥ فلسطينياً. وتبعاً للبيانات التي جمعها المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان، وهو منظمة غير حكومية موثوقة، كان من بين القتلى ٨٩٥ مدنياً و١٦٧ شرطياً. ومن بين القتلى، ذبح ٢٨٠ طفلاً و١١١ امرأة. أما مجموع عدد الجرحى فقد وصل إلى ٤٣٣٦ جريحاً بينهم ١١٣٣ طفلاً و٧٣٥ امرأة. كما دمّر الجيش والقوات الجوية الإسرائيلية ٢٤٠٠ منزلٍ تدميراً كلياً، بالإضافة إلى ٢٨ مبنىً حكومياً و٣٠ مسجداً و١٢١ متجراً. بتاريخ ١٨ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩، أي قبل يومين من تنصيب باراك أوباما في

سدة الحكم في البيت الأبيض الأمريكي، أعلنت إسرائيل وقفاً أحاديّ الجانب لإطلاق النار وبدأت بسحب قواتها من غزَّة، مستأنفة عملياتها العسكرية بعد ثلاثة أيام. وكانت الشعارات التي رفعتها حكومة تل أبيب لتبرير هجومها هي: «تغيير الواقع في غزَّة وضرب حماس بقوة». رغم ذلك لم يؤدِّ الهجوم سوى إلى تقوية سلطة حماس في قطاع غزَّة بدل إضعافها.

جرائم الحرب والإفلات من العقاب

بدأت العشرات من منظمات حقوق الإنسان بتجميع الأدلة على اقتراف جرائم حرب خلال العدوان على غزَّة وذلك من أجل تجريم القادة العسكريين والسياسيين الإسرائيليين الذين خططوا ونفذوا عملية الرصاص المصبوب. وحتى تاريخ كتابة هذه الأسطر، فإن مسار أي إجراء قانوني غير واضح، رغم أن الفرصة متاحة في عدد قليل من البلدان مثل بريطانيا التي تتيح الادعاء على مواطنين أجانب بتهمة اقتراف جرائم حرب ضد الإنسانية وممارسة الإبادة الجماعية. سيكون المسار القانوني لتقديم إسرائيل إلى محكمة الجزاء الدولية لجرائم الحرب في لاهاي هو الأطول والأكثر صعوبة، وذلك بالرغم من أن إسرائيل، مثلها مثل الولايات المتحدة، لا تعترف بمحكمة الجزاء الدولية. في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٢٠٠٩ دعت الجمعية العامة للأمم المتحدة للاستماع لتقرير لجنة غولدستون التي ألّفتها الأمم المتحدة والذي «سجّل تقريرها حدوث خروقات خطيرة لمعاهدة جنيف مقترحاً تَضْمين المسؤوليةِ الإجراميةِ الفرديةِ في قضية الحرب على غزَّة بين عامي ٢٠٠٨ و٢٠٠٩» وأن القضية يجب أن تحال إلى محكمة الجزاء الدولية.

الفهرس

- أ -

- ب -

- س -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

- ع -

- ل -

- م -

- ن -